سلسلة الحضارة الصينية
تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية

الوسائل الطبيعية

الطب الصيني التقليدي

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
تأليف: كوي تشيزانغ



BEIJING PUBLISHING GROUP



تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة — الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة — الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق — تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية — الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية — الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية — الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي — العمارة الصينية
- التشابه والتغاير — فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم — العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح — الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي — الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية — الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح — الخط الصيني
- عالم صغير — الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر — الأدب الصيني
- طفولة حضارة — الأساطير والخرافات الصينية
- كلٌ متكامل بين العالمين العقلي والمادي — الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل — الأوبرا التقليدية الصينية







سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



الطب الصيني التقليدي

الحكمة الرمزية التي تقوم عليها أمة

الوسائل الطبيعية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

إعداد: كوي تشيزانغ



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Natural Way
Traditional Chinese Medicine

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2006-8



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة

لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوِّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

汤一介

مقدمة

ممارسة الطب الصيني التقليدي بأسلوب ممتاز وفضيلة عالية – الطريق الطويل إلى صحة الإنسان

تتمتع الصين بتاريخ طويل؛ إذ كانت موطئ قدم لواحدة من الحضارات الإنسانية الأولى في العالم. وقد نجحت عبر تاريخها الممتد لقرون بل لآلاف السنين في بناء العديد من المعالم الحضارية والثقافية والعلمية والتكنولوجية التي لعب الطب الصيني فيها دوراً في غاية الأهمية. وقد ورد في كتاب تاريخ الطب الصيني العام (المجلدات الأثرية): «يعود تاريخ جذور الطب الصيني إلى زمن سحيق، حين أشرق فجر الحضارة على آسيا، وحين بدأت تجمعات صغيرة من الحضارات ما قبل التاريخية الممتدة عبر الأراضي الشاسعة بالتواصل والترابط مع بعضها بعضاً لتشكل حضارة باهرة. إذاً، هذه نقطة بداية الطب الصيني ضمن الحضارة الصينية».

لقد مرّ الطب الصيني بمراحل تطور كثيرة بدأت مع السلالات الأولى التي حكمت الصين: أي سلالات شيا وشانغ ومملكة زاو الغربية، حيث كان الأطباء متواجدين في الوقت ذاته مع الشامانات أثناء نشأة البذرة الأولى للطب الصيني التقليدي. لكن، في المراحل التالية من التاريخ الصيني، أي «حقبة الربيع والخريف» ثم «حقبة الممالك المتحاربة» انفصل الأطباء والشامانات عن بعضهم بعضاً، وبدأ الطب الصيني التقليدي يتخذ شكله الأساسي الذي نعرفه اليوم.

بعد ذلك، شهدت حقبتا سلالتي تشين وهان وصول كل من علمَي الطب الأساسي والسريري بالإضافة إلى علوم الأدوية والوصفات الشفائية إلى أول ذروة لها؛ إذ انكشفت فيها آفاق جديدة غير مسبوقة. ثم استجمعت الممالك الثلاث: مملكة سلالة جين الغربية، ومملكة سلالة جين الشرقية، والسلالتين الجنوبية والشمالية معارف طبية هائلة قائمة على تطور التجارب والعلوم، مما مهّد الطريق أمام الذروة الطبية الثانية التي شهدتها فترة وحدة البلاد تحت حكم سلالتي سوي وتانغ.

لكنّ المرحلة التي يمكننا اعتبارها أهم حقبة في تطور علوم الطب الصيني التقليدي كانت حقبة حكم سلالة سونغ. ففي تلك المرحلة، ظل الطب الأساسي يتعمق في أبحاثه واكتشافاته، كما توسعت مواضيع بحث الطب السريري، وعلوم الوقاية الصحية، بل وعلم الطب الجنائي ومتطلبات النظافة العامة. وقد كان لانفتاح الصين غير المسبوق على العلاقات الخارجية مع الدول والحضارات الأخرى خلال تلك الفترة إسهامات هائلة في تطور الطب في البلاد.

أما فترة حكم سلالات لياو وشيا وجين ويوان فقد شهدت عصراً ذهبياً من المنافسة بين مدارس الطب المختلفة، كما شهدت انتشارها على مستوى الدولة ككل؛ مما أضفى حيوية جديدة على الطب الصيني التقليدي. أما فترة حكم سلالة مينغ فقد شهدت اتجاهات إبداعية جديدة، حيث وصلت المنافسة بين المدارس الطبية إلى مستويات جديدة، في حين شهدت فترة سلالة تشينغ تحسينات جديدة في نظام الطب الصيني التقليدي وازدياد شعبيته.

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، تعرفت الصين على الطب الغربي مع وصول الإرساليات الدينية الغربية التي ترجمت الكثير من الكتب وبنت عدداً من المدارس والمستشفيات الغربية؛ مما ترك أثراً كبيراً على الطب الصيني التقليدي. وأثناء عملية التلاقي تلك، استخدم الطب الصيني التقليدي الكثير من الأمور المفيدة في الطب الغربي؛ مما لا يثبت التشابه الكبير بينهما فحسب، بل يثبت أيضاً الحيوية الكبيرة التي يتمتع بها الطب الصيني التقليدي.

ولكن الاختلاف الجوهري بين الطب الغربي ونظيره الصيني التقليدي يكمن في نظرة الأخير إلى الإنسان، وتأكيده على وحدة الجسم البشري وتكامله، وتشديده على العلاقة الوطيدة بين الإنسان والطبيعة. إذ يسعى الطب الصيني التقليدي إلى تحقيق غايته، أي شفاء أمراض الجسد الجزئية من خلال تعديل كامل الجسد، وصولاً إلى تنشيط قدراته الكامنة على شفاء الأسقام، وتحسين إمكانياته لشفاء نفسه بنفسه من دون تدخل خارجي.

يمتاز الطب الصيني التقليدي بأسلوبه المختلف عن أساليب الطب العالمية، كما يمتاز بفعاليته العالية، وطرائقه الفريدة في تشخيص الأمراض وعلاجها، ونظامه النظري المتكامل، بالإضافة إلى سعة الوثائق التاريخية التي تتناوله بالشرح والتفسير؛ مما جعل منه بحق أحد كنوز الإرث الطبي الإنساني.

وقد واكب كلَّ حقبة من حقبات تطور الطب الصيني التقليدي ظهورُ عدد كبير من

الكتب المرجعية، كما برز العديد من الأطباء المتميزين الذين مثّلوا التقدم الطبي الذي شهده زمنهم خير تمثيل، وذلك من خلال الشروحات التي قدموها حول إسهاماتهم في الطب وتجاربهم فيه.

يتميز الطب الصيني التقليدي بأنه يتطلب من الأطباء الجمع بين الموهبة العملية والنزاهة الأخلاقية، أي بين الوازع الأخلاقي العالي الرفيع والمهارة العملية المتطورة.

يتداول شعب الصين مثلاً قديماً وهو: «إما أن تكون رئيس وزراء جيداً، أو تكون طبيباً جيداً». وما يعنيه هذا المثل هو أنه ينبغي على المرء أن يعالج الأمراض بالطريقة نفسها التي تُحكَم فيها البلاد. ولذلك انتقد الطبيب تشانغ تشونغ جينغ (150-219 ميلادية) في كتابه «رسالة في الأمراض الحمِّية[1] والمتنوعة» العلماء الساعين وراء الشهرة والثروة فقط من غير «أي انتباه للطب أو البحث في الوصفات العلاجية»، كما بيَّن سون سي مياو في كتابه «وصفات قيِّمة للحالات الطارئة» بالتفصيل أن «الطبيب الحاذق لا ينظر بعين التعظيم إلا إلى الفعالية والصدق»، قائلاً إنه على الأطباء أن يكونوا ذوي أخلاق عالية ورفيعة.

أما قونغ تينغ شيان فقد تضمنت وصاياه العشر للأطباء، والتي ألحقها بآخر كتابه «الإجراءات الشفائية لجميع الأمراض» ثلاث وصايا تتعلق بأخلاقيات الطبيب: «يجب أن يكون قلبك طيباً وخيراً»، و«عليك ألا تحسد أحداً»، و«عليك ألا تكون مادياً». كما أوصى شيوي دا تشون (1693-1771)، الذي كان طبيباً أثناء حقبة سلالة تشينغ، بأنه «على الأطباء ألا يسعوا إلى ابتزاز مرضاهم لجني الأرباح الطائلة مستغلين إنقاذهم للآخرين».

وفي الوقت ذاته، إن المهارات الطبية الاستثنائية هي الوسائل المثالية لإنقاذ حيوات الآخرين. وقد بذل الأطباء العظماء على مدى تاريخ الطب الصيني التقليدي قصارى جهودهم في دراسة ما كتبه أسلافهم لتحسين مهاراتهم والوصول إلى تلك الغاية، ولكنهم أضفوا مع ذلك لمستهم الإبداعية الخاصة بهم؛ إذ كانوا يعتقدون أن الأوقات المتغيرة تتسبب في «أمراض جديدة لا يمكن معالجتها باستخدام الوصفات القديمة». كما كان أولئك الأطباء مجتهدين ولا يخشون تحمل المسؤولية، لذا حسّنوا مهاراتهم الطبية باستمرار من خلال التجربة والممارسة.

خلال حقبة سلالة تشينغ، ألّف يوان ماي كتاباً تناول فيه سيرة حياة الطبيب العظيم شيوي دا تشون الذي أسلفنا ذكره، وقال فيه: «بالنسبة إلى الأطباء الذين لا يمتلكون أي مهارة،

(1) الحمية: ذات علاقة بالحمى.

الفضيلة هي أهم ما يمكنهم أن يتحلوا به. أما بالنسبة إلى أولئك الذين لا يمتلكون أي فضيلة، فالمهارة لا تعني شيئاً».

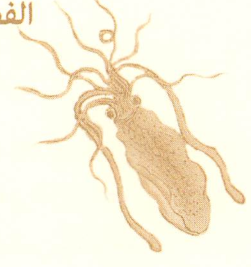
ليس الطب الصيني التقليدي إلا أحد روافد نهر تاريخ الصين الحضاري، وقد وصل إلينا من خلال امتداد تاريخي خطي غير منقطع عبر آلاف السنين، وهذا أمر نادر في تاريخ الطب العالمي. وخلال ذلك الامتداد الطويل، أثرى الطب الصيني التقليدي التراث العالمي بالأساطير التي انتقلت من جيل إلى آخر حول أصول الممارسة الطبية، كما قدّم للإنسانية عدداً كبيراً من الأطباء المشهورين الذين حفظت لنا سيرة حياة كل منهم كيفية تحليهم بالفضائل التقليدية التي يتميز بها الشعب الصيني؛ مثل الحكمة والشجاعة والتضحية. كما ترك لنا مقداراً هائلاً من التراث المكتوب الذي وصفه كثيرون ممن اطلعوا عليه «بـالهائل» و«الواسع»، والذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من تقاليد الصين الطبية. وكذلك ترك لنا الكثير من المهارات الطبية التي امتاز بها الطب الصيني التقليدي والتي لفتت انتباه العالم بأسره. كما ترك لنا أعداداً لا تحصى من الأطباء الذين أصبح كل واحد منهم أسطورة في زمنه وفي العصور التي تلته، كما ترك لنا قصصاً عن سحر الطب الصيني التقليدي جعلت الناس يهتمون به مجدداً. وبالإضافة إلى كل ذلك، ترك لنا خبرة لا يستهان بها في الوقاية من الأمراض، وتجمع بين الفضائل الخلقية والعناية بجانبي الإنسان: الجسدي والروحي. فسواء أكان هدف الدارس لهذا الطب العناية بالصحة أم الجمال أم حتى طول العمر، فالطب الصيني التقليدي حاضر في هذه المجالات كلها، مغطياً إياها بالإضافة إلى الكثير غيرها خلال فترات تطوره المديدة، وعبر الرقعة الجغرافية الواسعة التي امتد استخدامه إليها. إنه بحق أحد كنوز الحضارة الصينية الباهرة.

إذاً، الطب الصيني التقليدي قديم، وقد وصل إلينا بعد رحلة طويلة تراكمت خلالها خبرات آلاف السنين، وترك فيها أثراً عميقاً في وجدان شعوب شرق آسيا، مقدّماً إسهامات هائلة في زيادة عدد سكان الأمة الصينية وازدهارها، كما خلّف لنا كنوزاً علمية مدوّنة لا تحصى.

ولكن، من ناحية أخرى، الطب التقليدي الصيني حديث أيضاً. فقد بدأ عدد كبير من الناس بالدعوة للعودة إلى الطبيعة، مما زاد من أهمية الطب الصيني التقليدي كأحد أهم نماذج الطب العالمي التقليدي البديل القائم على ممارسات بسيطة ذات كلفة منخفضة نسبياً ولكن ذات أثر طيب على المتعالجين بها؛ سواء أكان ذلك على مستوى الصحة أم الجمال. ففي عالمنا المعاصر الحافل بالأمراض والأسقام، استعاد الطب الصيني التقليدي زهوه.



المحتويات









自然之道

الطب الصيني التقليدي

الفصل الأول

مخترعو الطب الصيني التقليدي

استكشاف أصل الطب الصيني التقليدي من خلال الخرافات والأساطير

ألّف يوي بيان الذي عاش في زمن سلالة مينغ كتاباً أسماه: «التفسير الطبي المستمر» وقد تحدث فيه عن رواد الطب الصيني التقليدي. وورد في الكتاب قوله: «إن تاريخ الطب يعود إلى أزمنة سحيقة موغلة في القدم! كان الإمبراطور هوانغ أول من درس حدوث الأمراض المختلفة وشفاءها، كما كان شن نونغ هو من تعرف على طبيعة مئة دواء ومذاق كل منها. أما يي يين فقد كان من اكتشف طريقة الحصول على المستحضرات الطبية بواسطة الغلي. لقد أنقذ أولئك الثلاثة أعداداً كثيرة من الناس من المعاناة من الأمراض والأوجاع، وكانوا ممن قادوا البشرية حتى تتجاوز طور نشأتها الأولى، وسوف تتداول الأجيال المتعاقبة إنجازاتهم العظيمة بكل تأكيد!».

إذاً، من اخترع الطب الصيني التقليدي؟ هل اخترعه أولئك الذين أشارت إليهم الأساطير، أم سحرة من قديم الزمان، أم أناس عاديون؟ رغم أنه لكل أسطورة أدلة تاريخية تدعم صحتها إلا أنه أصبح من المتعارف عليه لدى جمهور الناس أن شن نونغ والإمبراطور هوانغ ويي يين هم من اخترعوه، وقد حرصوا في ممارستهم إياه على تداخل الفضائل التقليدية التي يفتخر بها الشعب الصيني؛ أي الحكمة والشجاعة والتضحية.



الصورة 1-1 شن نونغ

هذه صورة شن نونغ، أحد ثلاثة صينيين أسطوريين قاموا بتجربة جميع الأدوية العشبية. تظهر هذه الصورة شن نونغ وقد برز قرنان من رأسه، وزين حاجبان كثيفان وعينان كبيرتان وجهه. كما نلاحظ أن كتفيه تغطيهما أوراق الأشجار، بينما يتذوق بعناية إحدى الأعشاب. يطابق هذا الرسم الوصف التاريخي الذي حفظته لنا السجلات التاريخية لشن نونغ.

لقد تناقلت الأجيال واحداً تلو الآخر الأساطير القائلة إن شن نونغ قد تذوق شخصياً أنواعاً لا حصر لها من الأعشاب، وهذه الأساطير اليوم هي الأوسع انتشاراً والأكثر إثارة للمشاعر. لقد كان شن نونغ (المشهور أيضاً باسم



«شن نونغ تشي») أحد الأباطرة الأسطوريين الثلاثة، وبحسب الأساطير الصينية كان مخترع الزراعة أيضاً كما يعكس ذلك لفظ «نونغ» في اسمه، والذي يعني «الزراعة» باللغة الصينية. وتشير السجلات التي تحدثت عن الإمبراطور شن نونغ في المجلد الثاني من «كتاب التغيرات» (وهو المجلد الثاني من الكتابات الصينية العشر المعروفة باسم «شي تسي») إلى أنه وبعد وفاة «باو شي تشي» أصبح «شن نونغ تشي» قائد القبيلة، فصنع محراثاً من الخشب وأغصان الأشجار المعقوفة، وبيَّن طرائق الزراعة لعموم الناس.

تشير السجلات التاريخية التي تتحدث عن الأباطرة الأسطوريين الثلاثة أيضاً إلى أن شن نونغ أدى صلواته إلى الآلهة المئة ثم استخدم منجلاً أحمر ليحصد الأنواع المختلفة من الأعشاب والنباتات، ويختبر ما إذا كانت سامة أم لا. وكانت نتيجة مخاطرة شن نونغ هذه أنه نال احترام الأجيال التالية وتقديرها؛ إذ اعتُبِر الأب الروحي للطب. يذكر المجلد الثاني من كتاب قصص الأعاجيب أن «الدينغ المصنوعة كتذكار لتذوق شن نونغ للأعشاب منصوبة على تل «شِنفو» في تايوان، أما المكان الذي حصد فيه شن نونغ الأدوية العشبية فموجود على جبل تشينغيانغ».



الصورة 1-2 شن نونغ يستخدم أداة زراعية

يقال إن شن نونغ هو مخترع الزراعة، فقد صنع أولى الأدوات الزراعية الصينية القديمة مثل لَيْ (المحراث القديم) وسي (أداة زراعية تشبه المجرفة كانت تستخدم في الصين القديمة)، وعلّم الناس كيف يزرعون الأراضي بالحبوب الصينية الخمسة. يظهر شن نونغ في هذه الصورة وهو يفلح الأرض حاملاً أداة اللَّيْ بيديه؛ مما يعكس واقعاً وهو أن الإنتاج في ذلك الوقت كان قد بدأ بالتطور من مجرد التقاط الثمار وصيد الحيوانات والأسماك إلى الزراعة.

وبحسب كتاب «هواي ناي تسي - شيو وو شيون»: «لقد تذوق شن نونغ جميع أنواع الأعشاب المفيدة للناس، وقد عثر على سبعين نوعاً من المواد السامة في يوم واحد فقط». إن السجلات التي حفظت لنا شكل الدينغ الكبيرة، والمنجل الأحمر الذي استخدمه لحصد الأعشاب، والمواد السامة السبعين التي وجدها غنية للغاية أبقت أسطورة شن نونغ حية في القلوب والأذهان.



الصورة 1-3 مشهد لشن نونغ وهو يتذوق الأعشاب المئة، متحف جامعة بكين للطب الصيني (التقط الصورة: نيه مينغ)

تظهر هذه الصورة شن نونغ وهو في طريقه لتجميع الأعشاب. كان ينظر أمامه إلى الأفق، مغطياً كتفيه بجلود الحيوانات ووسطه بأوراق الأشجار، وواضعاً حزاماً حول خصره، ومرتدياً سروالاً. تظهره الصورة أيضاً وهو حافي القدمين، ومكشوف البطن، ومعتمراً قبعة من القش، وحاملاً على ظهره سلة مليئة بالأعشاب وعصا طويلة، وأداة مصنوعة من ذيول الأحصنة لطرد الذباب، وثمرة قرع طويل على طرف العصا، كما يحمل مجرفة أعشاب بيده اليسرى، وحبة فطر من نوع الغانوديرما بيده اليمنى، وهو يسير على صخور الجبل. تعكس هذه الصورة الجهد القاسي الذي بذله شن نونغ وهو يسير في الجبال الخضراء، كما تمثل القيم الروحية العظيمة التي دفعته إلى بذل جهده لإنقاذ الناس.

في البداية، لم يكن شن نونغ أكثر من اسم حفظته السجلات، ولكن السجلات اللاحقة صوّرته بشكل محدد وواضح: لقد كان يغطي جسده بأوراق الأشجار والأعشاب، وقد برز قرنان من رأسه، كما كان يحمل حفنة من البذور في يده. بل تقول إحدى الأساطير إن جسد شن نونغ كان مصنوعاً من الجاد المزخرف، وإن رئتيه وكبده وأعضائه الداخلية الخمسة كانت مرئية للآخرين؛ مما أعانه على التخلص من سموم لا حصر لها أثناء بحثه (انظر إلى الصورتين: 1-2 و1-3).

ثانياً: كان شن نونغ يعتمد طريقة فريدة كي يتعرف إلى الأعشاب. وتقول إحدى الأساطير إنه أخذ معه حيواناً أسطورياً يدعى: تشانغ شو، وإن هذا الحيوان كان قادراً على رؤية الأعضاء والقنوات والفروع الاثني عشر ليساعده في التعرف على الأعشاب الطبية. ولا يزال هناك مثلٌ شائع في الصين مفاده أن الأعشاب لا تمتلك أية فعالية ما لم يتعرف التشانغ شو عليها.



وتقول أسطورة أخرى إن التشانغ شو تناول في أحد الأيام بذور النبتة المسماة «حب الملوك»، وأصيب بالإسهال بعد ذلك، فوضعه شن نونغ تحت شجرة ذات أوراق خضراء ليرتاح. وبعد مرور الليل، فوجئ شن نونغ بأن الحيوان الأسطوري قد تعافى بعد أن شرب الندى المتساقط من أوراق تلك الشجرة. عندها، أخذ شن نونغ بدوره بعض أوراق الشجرة وتناولها ولاحظ أن جسده قد استرد طاقته وأن عطشه قد زال، فعلَّم الناس زراعة هذه الأشجار، وهي أشجار الشاي التي نعرفها اليوم.

لا تزال الكثير من مناطق الصين مثل «شننونغجيا» و«وانغنونغتينغ» و«موتشنغ» و«ليوشيانغتشاي» وغيرها تملك آثاراً تعود إلى شن نونغ... كلٌّ من هذه الأماكن يحتفظ بأسطورة جميلة خاصة به عنه **(انظر إلى: الصورة 1-4 والصورة 1-5)**.

وجد شن نونغ من خلال تجارب التذوق التي أجراها أن القمح والأرز والدخن (الذرة البيضاء) والسرغوم (حبوب تشبه الذرة البيضاء) والفول جميعها تشبع الإنسان، ولذلك دعا أتباعه إلى أخذ بذور هذه النباتات إلى الوطن، وتعليم الناس كيفية زراعتها؛ وهي النباتات التي أصبحت لاحقاً تسمى الحبوب.

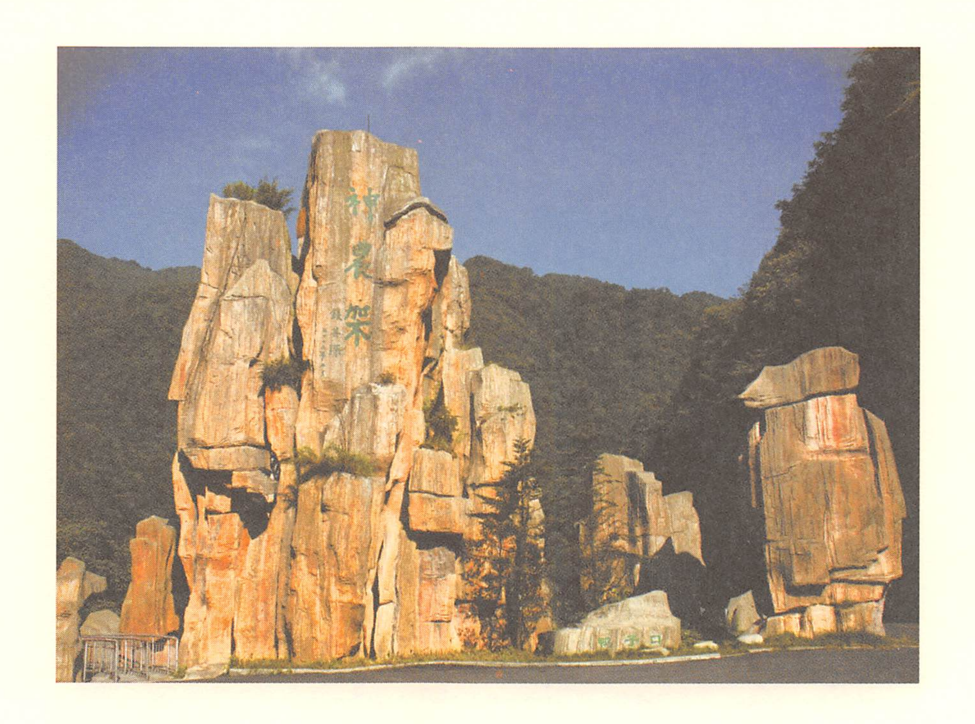
جرّب شن نونغ 365 نوعاً من الأعشاب، وتحدث عنها في كتابه الذي اشتهر بعنوان «كتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب»، والذي قدّم فيه وصفات العلاج الشعبية. ويعتبر المؤرخون أن صدور هذا الكتاب هو نقطة بداية الطب الصيني التقليدي. وقد قامت الأجيال التالية بشرح هذا الكتاب وتفسيره وإضافة مكتشفاتهم

(في الأعلى) الصورة 1-4 شننونغجيا في محافظة بادونغ، مقاطعة هوبي، الصين

تقول الأساطير إن شن نونغ، أحد أسلاف الأمة الصينية (والذي أجمع المؤرخون على أنه الإمبراطور الذي اشتهر باسم يان) قام بإنشاء رفوف ليجمع عليها الأعشاب التي تشفي أمراض الناس في شننونغجيا، حيث بنى سلالم خشبية للتسلق، وبيوتاً خشبية للحماية من الرياح والمطر، وأخيراً بنى مذبحاً خشبياً كي يتسلق منه إلى السماء، ولذلك سميت هذه المنطقة: شننونغجيا.

(في الأسفل) الصورة 1-5. وادي شنونغ في مقاطعة هونان، الصين (التقط الصورة: وانغ جَن)

يقع منتزه غابة وادي شنونغ الوطني جنوب شرق مقاطعة هونان، في القاطع الأوسط من جبل ليوشياو وشمال غرب المنحدر الشمالي لجبل وانيانغ على حدود مقاطعتي هونان وهوبي. يقال إن شن نونغ التقط الأعشاب هنا مرة وترك خلفه آثاراً تاريخية مهمة تشمل «آثار أقدام شن نونغ»، وبركة غسل الأعشاب، وهاون سحق الأعشاب، وكهفاً لتخبئة الأعشاب، ومصطبة لتجفيف الأعشاب.


神农架


神农谷



الصورة 1-6 كتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب. متحف أجياو الصيني (التقط الصورة: أ قوه تشينغ)

إليه حتى تحوّل إلى عمل ضخم في أدب طب الأعشاب (انظر إلى الصورة 1-6).

كان الإمبراطور هوانغ مكتشفاً آخر لفن الطب الصيني التقليدي، وهو الإمبراطور الأول من بين أباطرة الصين الخمسة القدامى. يذكر كتاب «السجلات التاريخية- رواية لتاريخ الأباطرة الخمسة» أن «الإمبراطور هوانغ هو ابن شاوديان، وكان اسم عائلته قونغسون، ويدعى أيضاً شيوان يوان. كان الإمبراطور بليغاً في التعبير منذ نعومة أظفاره، وقد حافظ على السلوك القويم منذ أن كان صغيراً في السن. كما كان صادق اللسان، وذا قدرات عالية أثناء شبابه. أما بعد بلوغه سن الرشد فقد صار حكيماً وحازماً». لقد جلب الإمبراطور هوانغ السلام إلى أراضيه بعد الحرب مع التشي يو، كما زرع الحبوب والأعشاب والأشجار وزاد إنتاجية الناس، كما

كان أول من اخترع الحروف الصينية والرياضيات، وصنع الأسلحة ونظام الدوزنة الموسيقية، وأول من ربى ديدان الحرير وأسس النظام الطبي. باختصار، يعتبر الإمبراطور هوانغ المؤسس الحقيقي للحضارة الصينية **(انظر إلى الرسم 1-7)**.



الرسم 1-7 الإمبراطور هوانغ

يزعم ممارسو الطب الصيني التقليدي أن الإمبراطور هوانغ هو مخترع هذا النوع من الطب؛ لأن الكتب الكلاسيكية التي تتناول هذا الفن مثل «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ»، و«كتب الإمبراطور هوانغ الرسمية في الإجابة عن *81* سؤالاً صعباً» كلها تورد اسمه. في تلك الكتب، يتحدث الإمبراطور هوانغ مع خدم بلاطه الستة: تشي بوه، ولي قونغ، وبوه قاو، وشاو يو، وشاو شي، ووي يوي تشيوي عن المعارف الطبية، وقد استُخدِم في هذه الكتب أسلوب الحوارات المبنية على الأسئلة والإجابات عنها. ولعل حوارات الإمبراطور مع تشي بوه الأكثر طولاً من بين جميع الحوارات المدونة في تلك الكتب، ولذلك سمَّت الأجيال التالية الطب الصيني التقليدي: «فن تشي بوه والإمبراطور هوانغ»، وقد كان تلاقي الحكمة هذا بين الإمبراطور هوانغ وخدم بلاطه الستة حجر الأساس الذي بُنِيَت عليه سائر نظريات الطب الصيني التقليدي لاحقاً.

يعتبر استخلاص جرعات الأدوية من خلال غلي الأعشاب أحد أشكال العلاجات الصينية التقليدية، ويقال إن يي يين هو من اخترعه. كان يي يين رئيساً لوزراء الإمبراطور تانغ الذي حكم أثناء حقبة سلالة تشانغ. وقد حفِظَت لنا كتب مثل «شانغ شو» و«مختارات كونفوشيوس» و«حوليات الربيع والخريف للو»، و«لَيْ تسي»، و«أغاني تشو» وغيرها من النصوص القديمة المكتوبة قبل حقبة سلالة



الصورة 1-8 يي يين

لا نعلم بالضبط متى ولد يي يين أو متى توفي. ويقال إنه عاش أثناء حقبة حكم سلالة شانغ. كما قيل إن يي يين تذوق مئة عشبة بينما كان يطبب عوام الناس، وإنه قد تعرض للتسمم بسبب ذلك عدة مرات، وبذلك اكتشف قوانين شفاء الأمراض من خلال الأعشاب.

تشين سيرةَ حياة الإمبراطور هوانغ وأعمالَه، فذكرت لنا أنه أمضى طفولته تحت رعاية طباخ تعلم منه فن الطبخ حتى تمكن منه تمام التمكّن، وأنه قد تعلّم إدارة الدولة من خلال تعلمه الطبخ! أما كتاب «المرآة العامة للمساعدة في الحكم» فقد ذكر أن يي يين ابتكر فن استخلاص العلاجات من خلال الغلي للتخفيف من معاناة الناس، وأنه كان واسع العلم بطبيعة استخلاص كل وصفة بهذه الطريقة وفعاليتها. وذكر كتاب «جيايي جينغ» أن «يي يين كان الحكيم الذي ابتكر فن استخلاص العلاجات من خلال غلي الأعشاب بحسب ما ذكره كتاب شن نونغ المرجعي عن الأعشاب». وقد شملت «مختارات هان» 32 مجلداً عن فن استخلاص العلاجات من خلال غلي الأعشاب، وقد قيل إن يي يين كان شخصياً من ألّفَها ولذلك عرفت باسم «غلي الأعشاب ليي يين». يتطلب فن غلي الأعشاب خلط عقاقير مختلفة، حيث تتفاعل مع بعضها بعضاً وتركز على الامتصاص وتقليل الأعراض الجانبية لهذه العقاقير. يعتبر اختراع فن استخلاص العلاجات من خلال الغلي بداية للوصفات التي تناقلتها الأجيال في فن الطب الصيني التقليدي. (انظر إلى الصورة 1-8).

| مياو فو يولي وجهه شطر الشمال ليصلي طالباً العلاج

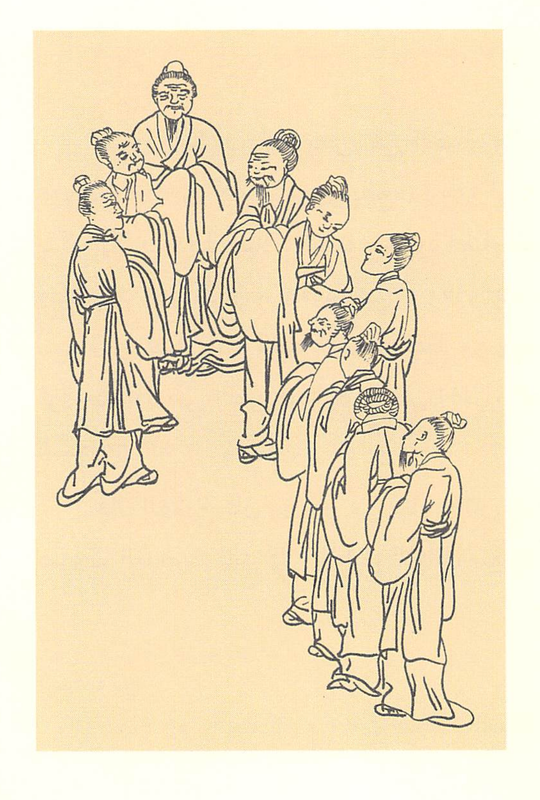
يدور «الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» حول ستة أطباء عباقرة هم: «وو بنغ»، و«وو دي»، و«وو يانغ»، و«وو ليوي»، و«وو فان»، و«وو شيانغ»، كما يذكر الكتاب ذاته جبلاً عاش فيه عشرة أطباء كانوا يجمعون الأعشاب لصنع الأدوية ويدعون: «وو شيان»، و«وو جي»، و«وو بان»، و«وو بنغ» وغيرهم. نلاحظ أن أسماء أولئك الأطباء كلهم تتضمن لفظ وو ويعني الساحر باللغة الصينية، ويوجد قول متداول في الصين مفاده أن من اخترع الطب الصيني التقليدي كان «الأطباء السحرة» (انظر إلى الصورتين: 1-9 و1-10).

قال المؤرخ فان ون لان في كتابه «تاريخ الصين»: «لقد بدأ الطب كضرب من ضروب السحر... لقد كان الأطباء الأوائل سحرة في الغالب، وكانت طقوس السحر

الصورة 1-9 «الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» الذي ألفه وانغ فو، نسخة متحف بكين لو شون (التقط الصورة نيه مينغ)

«الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» نص قديم يجمع بين الأساطير والخرافات الشعبية المتداولة قبل سلالة تشين، ولا نعرف بالضبط وقت إتمام الكتاب ولا من ألفه. يروي هذا الكتاب ما كان معروفاً في الزمن القديم من حقائق وقصص عن الجغرافيا والمنتجات الطبيعية والأساطير والسحر والديانات إلخ... كما يشتمل على وقائع عن التاريخ القديم، ومعلومات عن الطب التقليدي، وعن الأزياء الشعبية، والمجموعات الإثنية الموجودة في الصين، ومعلومات كثيرة أخرى. لقد ضاعت الصور القديمة المرسومة في النسخ الأصلية من هذا الكتاب أثناء تناقله عبر الأجيال، أما الرسوم الموجودة فيه حالياً فتعود إلى نساخ من عصور سلالتي مينغ وتشينغ.



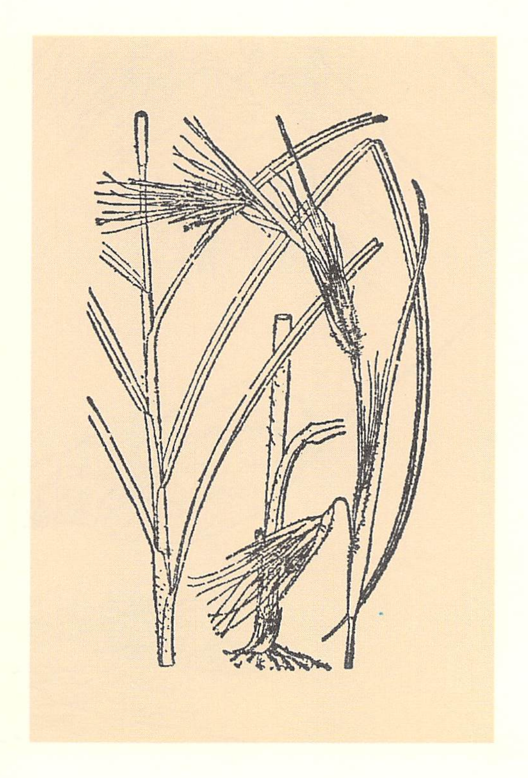


الصورة 1-10 السحرة العشرة، صورة من «الكتاب القديم عن الجبال والبحار» الذي كتبه وانغ فو (صوّرها تسنغ شو تسونغ)

الأشخاص العشرة في هذه الصورة هم السحرة العشرة في جبال لينغ شان الذين تحدث عنهم الكتاب القديم عن الجبال والبحار وهم: وو شيان، وو جي، وو بان، وو بنغ، وو جو، وو زين، وو لي، وو دي، وو شيي، وو لوو. كل واحد منهم يحمل معالم وجه مختلفة، ولكنهم جميعاً أنيقون ولطفاء ونابضون بالحياة.

تستخدم بغرض شفاء المرضى». ورغم أن إشارات كهذه واحدة من آراء كثيرة حول جذور الطب الصيني التقليدي إلا أنها تعكس من دون شك الصلة الوثيقة بين هذه الجذور من ناحية والسحر وطقوسه من ناحية أخرى.

كان مياو فو ساحراً، وقد تحدثت عنه المقولة التالية: «الطب الصيني التقليدي نشأ من السحر». وبحسب كتاب شيو يوان الذي ألفه ليو شيانغ كان ميا فو أثناء معالجته للكثير من مرضاه يجلس وإياهم على سجاجيد، بعد ذلك كان مياو فو يولي وجهه إلى جهة الشمال ويصلي من دون أن يقول أكثر من عشر كلمات. وبغض النظر عن مدى خطورة مرض من أتى إليه كان يُشفى على الفور نتيجة طريقة علاجه هذه. لم يتعامل مياو فو مع الأمراض بالطريقة ذاتها التي قامت بها الأجيال التالية من الأطباء؛ إذ لم يستخدم عناصر النبيذ الفعالة، ولا التدليك بالأحجار كما فعل الطبيب القديم المشهور يوي فو، ولكنه عمل على عقول المرضى، وأرخى



الصورة 1-11 نبتة التيميدا، رسم من كتاب «النباتات والزهور الصينية»

التيميدا نبتة عشبية معمرة ذات أوراق طويلة ورقيقة وجذور مطاطة قوية يمكن استخدامها في صنع المقشات والفُرَش والكثير من الأدوات المنزلية المفيدة. يمكن استخدام التيميدا للنسيج، ويعتقد أنها هي نفسها نبتة الماو قن التي أشار إليها «كتاب شن نونغ المرجعي عن الأعشاب»، وقد قام سان شينغ يان خبير الكتب الصيني الذي عاش خلال حقبة سلالة تشينغ بالبحث عن الماو قن في كتب مثل «أريا» و«الكلمات والتعابير» و«قوانغ يا» وغيرها ليجد أن الماو قن هي بعينها نبتة التيميدا.

العضلات المحيطة بالحجاب الحاجز، كما طهّر أنوفهم وأفواههم وآذانهم باستخدام البخار بهدف تنقية قنواتهم الجسدية وفروعها. (الرسم 1-11)

قال ليو جينغ رو في كتابه «كل شيء عن الطب الصيني التقليدي» إن مياو فو كان ساحراً ينتمي إلى عرقي المياو واللي، وإن شخصيته قد ورد ذكرها في الكثير من القصص الشعبية الرائجة. فمثلاً، توجد قصيدة شعبية قصصية في القسمين الشرقي والغربي من منطقة مياو تذكر وجود ملك في الطب، وتصف هذا الملك بأنه كان ذا جسد شفاف شبيه بالزجاج ويمتلك جناحين، كما ذكرت أنه حاول أن يجد وصفات طبية لعلاج الناس رغم الكثير من المشاكل والمصاعب التي واجهها. يذكر «الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» أيضاً أن هذا الملك كان شفافاً ومجنحاً؛ وهاتان الصفتان من الصفات المتداولة لآباء شعب المياو المؤسسين في العصور الأسطورية (انظر إلى الصورة 1-12).



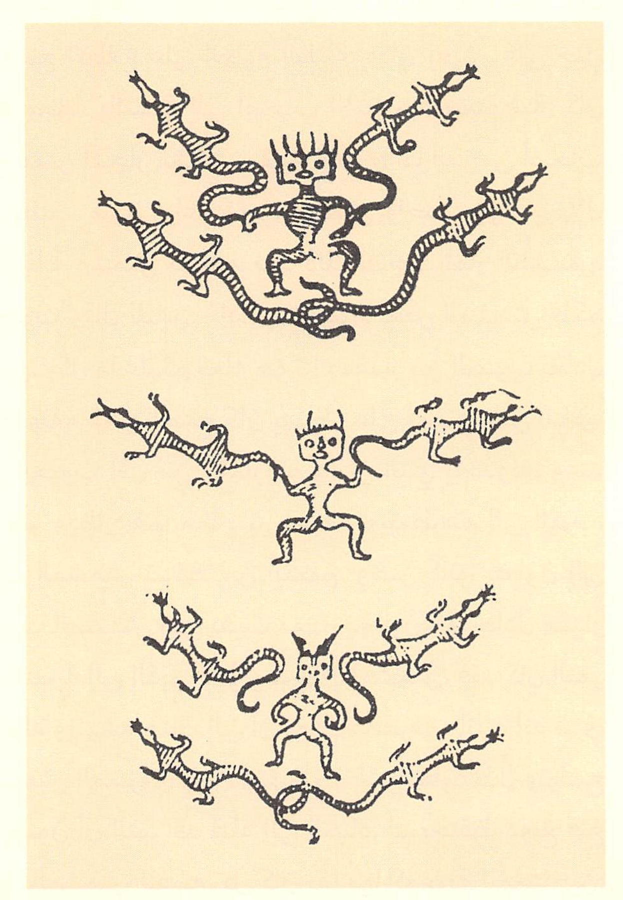
الصورة 1-12 شعب المياو؛ رسم من «الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» الذي ألفه جيانغ ينغ قاو (نسخه تسنغ شو تسونغ)

أشار قوه بو، وهو عالم عاش في حقبة سلالة جين الغربية، في شرحه لكتاب «الكتاب المرجعي في الجبال والبحار» إلى أن شعب المياو ينتمي إلى قبيلة سان مياو الأسطورية التي انحسر وجودها تدريجياً خلال فترتي حكم الإمبراطورين ياو وشُن نتيجة الحروب المتواصلة. ويعتقد العلماء اليوم أن قبيلة السان مياو ترجع إلى الأصول ذاتها التي ينتمي إليها شعبا مياو وياو.

طب المياو أحد الفروع القديمة في الطب الصيني التقليدي، ويعود إلى حقبة شن نونغ وتشي يو. يتداول شعب المياو الكثير من الأساطير حول هذين الشخصين. وكما رأينا، يعتقد البعض أن السجلات التاريخية قد أشارت إلى مياو فو باسم ملك الطب الأسطوري المنحدر من شعب المياو.

قال وين لان في «تاريخ الصين»: «بالنسبة إلى شعب الهوانغ يان، يحمل الشخص المسؤول عن الثقافة لقب شي (المؤرخ). أما بالنسبة إلى شعب المياو، فيحمل لقب وو (الساحر)». إذاً، لقد كان من يحمل لقب وو وريث الثقافة والطب

الصينيين القديمين ضمن شعب المياو، ولذلك فأسطورة مياو فو الحية لا تكشف لنا عن خلفية تاريخية واسعة فحسب، بل تقدم لنا معلومات لا تقدر بثمن تساعدنا على استكشاف جذور الطب الصيني التقليدي (انظر إلى الصورة 1-13).



الصورة 1-13 أنماط سحرية: إناء للأضاحي يحتوي على رسوم، ويعود تاريخه إلى حقبة الممالك المتحاربة

كانت أواني الأضاحي البرونزية تستخدم بالدرجة الأولى في شعائر تقديم القرابين خلال حقبتي «الربيع والخريف» و«الممالك المتحاربة». وقد تشير الرسوم السحرية إلى أهمية السحرة في الأحقاب القديمة التي كان الناس فيها يعتقدون أن القرابين التي يقدمونها أثناء أدائهم شعائرهم الدينية تدفع الآفات والأوبئة عن بلادهم.

| «غابة المشمش» و«القِدر المعلقة» والطب الصيني التقليدي

حين يُذكر الطب الصيني التقليدي سرعان ما تبرز إشارات إلى «شينغ لين» (غابة المشمش). فعلى سبيل المثال، مصطلح «شينغ لين قاو شو» يصف طبيباً ذا مهارة عالية في الطب الصيني التقليدي، أما مصطلح «شينغ لين دي تسي» فيشير إلى طلبة الطب الصيني التقليدي، أما مصطلح «شينغ لين تشون نوان» فيعني أن عمل الطب الصيني التقليدي يزدهر، ومصطلح «يوي مان شينغ لين» يشير إلى طبيب مشهور في دوائر الطب الصيني التقليدي. أما بالنسبة إلى أصل هذه المصطلحات واستخدامها، فيعود إلى أسطورة صينية قديمة (الصورة 1-14).

في كتاب «قصص الخالدين» الذي ألفه قه هونغ أثناء حكم سلالة جين ورد ما يلي: «كان دونغ فنغ واسع الاطلاع على العلوم الطبية، وكان يعيش على جبل ويعالج الأمراض المختلفة مجاناً. بالنسبة إلى أصحاب الأمراض المستعصية، كان يطلب منهم أن يزرعوا له خمس أشجار مشمش مقابل العلاج، أما المرضى أصحاب الحالات الأخف فقد كان يطلب منهم زراعة شجرة مشمش واحدة. ولهذا وخلال سنوات قليلة صارت عنده غابة مشمش كاملة». بعد ذلك نضجت ثمار المشمش، فبنى دونغ فنغ مخزناً للحبوب وقال للناس: «إذا أردتم شراء بعض المشمش فلكم ذلك، ولا داعي لأن تخبروني. وكل ما عليكم فعله هو ترك مقدار من الحبوب يعادل مقدار المشمش الذي تأخذونه». لكن الجشع كان يسيطر على قلوب بعض الناس، فكانوا يتركون مقداراً من الحبوب أقل من مقدار المشمش الذي يأخذونه. وعند حدوث ذلك، كان يخرج نمر ويطاردهم؛ مما يثير ذعرهم ويضطرهم إلى الهرب. وأثناء هربهم، كانت حبات المشمش تسقط من أيديهم. وحين كانوا يصلون إلى منازلهم ويزنون مقدار حبوب المشمش التي بقيت معهم يجدون أنها تعادل مقدار الحبوب التي تركوها. أما بالنسبة إلى الذين كانوا يسرقون المشمش، فقد كان النمر يطارد الواحد منهم إلى منزله وينهشه هناك إلى أن يموت، فتعرف عائلته أنه سرق المشمش. فإذا أعادوا المشمش المسروق إلى دونغ فنغ وطلبوا عفوه بذلٍّ وتواضع كان يعيد الشخص الذي يظنون أن النمر قد قتله إلى الحياة. لم يحتفظ دونغ فنغ بالحبوب التي كان يبادلها بالمشمش لنفسه، بل كان يقدمها كمعونة للمحتاجين؛

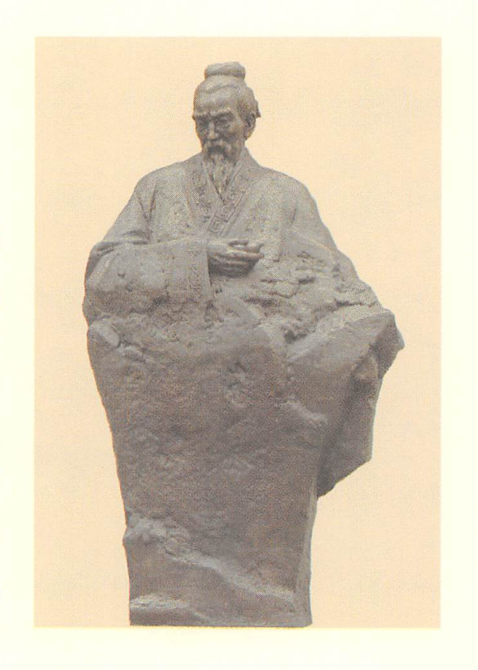


الصورة 1-14 مشهد النمر الحارس لغابة المشمش، تصوير جداري في معبد جي دو في جيبوان في مقاطعة خنان (تصوير نيه مينغ)

نشأت الإشارة إلى «النمر الحارس لغابة المشمش» قصة تقول إن دونغ فنغ أنقذ نمراً من خلال إخراج حسكة سمكة من حلقه. بحسب هذه الأسطورة، عاد دونغ فنغ إلى منزله ذات مساء بعد ممارسته الطب خلال النهار ليجد نمراً ملقىً على الأرض أمام منزله وهو يئن بصوت خافت. وحين فتح النمر فمه وجد دونغ فنغ حسكة سمكة كبيرة في حلقه، فذهب إلى الغابة وقطع غصن خيزران كبيراً وثناه من مفاصله وأخرج به الحسكة من حلق النمر منقذاً إياه من موت محقق. عبّر النمر عن امتنانه لدونغ فنغ من خلال حراسته غابة المشمش لاحقاً.

حيث كان يطعم عشرين ألف محتاج كل سنة. لذا، ظلت الأجيال المتعاقبة التالية تتذكر مهارة دونغ فنغ الطبية العالية وشخصيته النبيلة وشهرته الواسعة، حيث يسمي الناس في الصين كلاً من هوا توه وتشانغ تشونغ جينغ ودونغ فنغ: «الأطباء العباقرة الثلاثة»، وقد عاش ثلاثتهم في حقبة جيان آن في تاريخ الصين (انظر إلى الصورتين: 1-15 و1-16).

تمثل غابة أشجار المشمش التي امتلكها دونغ فنغ روحية أطباء الطب الصيني التقليدي: الهدف هو إنقاذ الناس، لا بل إنقاذ العالم. وبسبب هذا الهدف النبيل لا يزال الناس حتى اليوم يسمون حلقات الطب الصيني التقليدي «بغابة المشمش»، وهي تسمية تحمل معنيين: المعنى الأول هو تذكر دونغ فنغ؛ إذ يقال



(اليمين) الصورة 1-15 دونغ فنغ، تمثال

دونغ فنغ المعروف أيضاً باسم جيون يي ولد سنة 169 ميلادية. أصله من مدينة هوو غوان في مملكة وو (وهي المدينة المعروفة اليوم باسم تشانغله في مقاطعة فوجيان) في أواخر حقبة سلالة هان.

(الأسفل) 1-16 كوخ دونغ فنغ المتواضع، مدينة تشانغله، مقاطعة فوجيان (تصوير تشانغ جيي)

يقع كوخ دونغ فنغ المتواضع في جبل دونغ فنغ، قرية لونغ تيان، بلدة قو هواي، مدينة تشانغله في مقاطعة فوجيان. بني الكوخ على الطراز المألوف خلال حقبة سلالة هان. يحتوي كوخ دونغ فنغ المتواضع على قاعة عرض للأسلاف من ممارسي الطب وجدار للتغطية، وقاعة، وحديقة مئة نبتة، وهو محاط بشجر المشمش.



إن جيوجيانغ الواقعة في جيانغشي هي أول مكان مارس فيه دونغ فنغ الطب، ولا تزال تحتوي على غابة مشمش؛ كما يشتمل جبل لوشان قاعة تذكارية له، بل ويوجد جبل يعرف باسم جبل دونغ فنغ في منطقة تشانغله. أما المعنى الثاني فهو الحفاظ على روحية دونغ فنغ، والاستمرار في تناقل الفضائل التي عكستها حياته عبر الأجيال، حيث تبقى جوهر الأطباء الصينيين الروحي دائماً وأبداً (انظر إلى الصورتين: 1-17 و1-18).



1-17 غابة المشمش في جبل لوشان في مدينة جيوجيانغ، مقاطعة جيانغشي (تصوير أ قوه تشينغ)

يقال إن دونغ فنغ اكتشف أن معظم القرويين في جبل لوشان يعانون من الربو نتيجة الرطوبة، وأن الحرارة مع الرطوبة تؤديان معاً إلى أمراض لا حصر لها في تلك المنطقة. وبعد أن قام دونغ فنغ بتحليل الأحداث اكتشف أن خصائص المناخ في الجبل التي تعود إلى السحب السامة والبخار الناجم عن تغيرات الفصول الأربعة هي سبب الأمراض، ولذلك استخدم المشمش لوقاية قرويي الجبل من الأمراض وعلاجهم منها.

يعرف العلاج بالطب الصيني التقليدي باسم «القِدر المعلقة»، فما علاقة قِدر صنع الخل بعلاج الأمراض والأسقام؟

بحسب ما ورد في كتاب «تاريخ الصين في أواخر حقبة سلالة هان»، كان «في تشانغ فانغ» يعمل مسؤولاً رسمياً عن إدارة السوق، وكان من بين تجار السوق رجل عجوز يبيع العقاقير والأدوية أثناء النهار، وقد كان يعلق قِدراً في الشارع ويقفز فيها بعد إغلاق السوق. لم يره أحد يفعل ذلك إلا «في تشانغ فانغ» فتعجب من أمره. وفي اليوم التالي، زار «في تشانغ فانغ» الرجل العجوز ليستوضح منه عن الأمر، فطلب منه العجوز أن يأتيه في اليوم التالي. وحين زاره في الموعد المحدد، أخذ بيده وقفزا في القِدر، وفوجئ «في تشانغ فانغ» بوجود غرفة أخاذة الجمال مليئة بالأطعمة والأشربة الفاخرة التي تناولها مع الرجل العجوز داخل القدر. بعد انتهائهما من تناول وجبة العشاء خرجا من القِدر معاً، وطلب منه العجوز ألا يخبر أحداً بما رآه. في وقت لاحق، التقى «في تشانغ فانغ» الرجل العجوز الذي أخبره أنه في الحقيقة أحد الخالدين، ولكنه أرسل إلى هذا العالم نتيجة خطأ ارتكبه، ثم قال: «الآن وقد انتهى الأمر، هل تحب



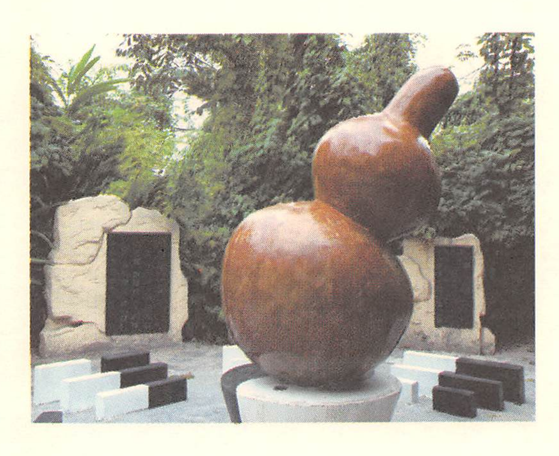
الصورة 1-18 جبل لوشان في مدينة جيوجيانغ، محافظة جيانغشي

مارس دونغ فنغ الطب في منطقة جياوتشو في أواخر حقبة سلالة هان الشرقية. عاش دونغ فنغ متنسكاً ومنعزلاً في جبل لوشان حوالي سنة 207 ميلادية، وهو وقت كانت فيه الحروب المستمرة تعصف بالبلاد. وقد ترك دونغ فنغ وراءه الكثير من المواقع التاريخية في جبل لوشان مثل زاوية دونغ فنغ التي تشمل كوخ شينغ لين المتواضع وكوخ فوهو، والموقع التاريخي حيث أخرج دونغ فنغ حسكة السمكة من حلق النمر، بالإضافة إلى قصر تاييي ومعبد تشنجيون ومعبد تاييي ومعبد تاييي شيانغفو حيث قدمت الأجيال التالية من الصينيين القرابين.

أن تأتي معي؟ إن لم تشأ ذلك فأنا أحب أن أتناول معك شراباً في الأسفل قبل أن أودعك!». وفي وقت لاحق، اختفى «في تشانغ فانغ» مع الرجل العجوز في أعماق الجبل حيث علمه العجوز كيفية معالجة الأمراض المختلفة.

تقول الأسطورة إن «رجل القِدر» الذي كان يبيع الأدوية في السوق لم يقبل بأي مساومة في مبيعه، وكان ماهراً للغاية في معالجة شتى الأمراض، لدرجة أنه كان يقول لمريضه: «تناول هذا الدواء وفي اليوم المحدد ستبصق شيئاً ما وستتحسن». وكانت توقعاته دقيقة دائماً، وقد جنى الكثير من المال ولكنه أنفقه كله على مساعدة المحتاجين، وخاصة من يعاني منهم من الجوع والبرد. وقد ارتبطت قِدره





20-1 قُلَّة من الدواء «لممارسة الطب من أجل مساعدة الناس»، تمثال في حديقة الأعشاب الطبية في قوانغشي (تصوير وانغ هوا بين).

المعلقة مع علاجاته الطبية ووصفاته حتى عُرِف باسم «رجل القِدر». لم تخبرنا الأساطير والكتب ما إذا كان ذلك الطبيب المتنسك الطيب قد علَّم مهاراته الطبية «لفي تشانغ فانغ»، ولكن ما نعلمه يقيناً هو أن رجل القِدر وفي تشانغ فانغ كانا طبيبين مشهورين خلال حقبة سلالة هان الشرقية.

تداول الناس في الصين أسطورة رجل القِدر، وفي وقت لاحق وعند افتتاح أي عيادة كان صاحبها يحتفل بذلك من خلال تعليق قِدر فيها. ولأن الكلمة التي تدل على معنى «قِدر» هي ذاتها التي تدل على معنى «قُلَّة» فقد قامت الصيدليات بتعليق القُلَّة كإشارة لمتجر الصيدلية، ولا يزال الشعب الصيني حتى اليوم يتداول مثلاً يقول: «لا نعلم أي دواء يباع في القُلَّة»! (انظر إلى الصورتين 1-19 و1-20).

自然之道

الطب الصيني
التقليدي

الفصل الثاني

الكتب المرجعية التي يجب على الأطباء قراءتها

في مبادئ العلوم الطبية - الكتاب المرجعي في الطب الباطني

ما هو موضوع «الكتاب المرجعي في الطب الباطني»؟ ولماذا سمي بهذا الاسم؟

«الكتاب المرجعي في الطب الباطني» أو «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني» هو أحد الكتب الأولى المتعلقة بالنظرية الطبية التي أُلِّفت في الصين. وقد تم تأليف هذا الكتاب أثناء حقبة الممالك المتحاربة، وبالتالي يعود تاريخه إلى أكثر من ألفي سنة. ولكن رغم ذلك، جميع المبتدئين في نظريات الطب الصيني التقليدي يستخدمونه كمنطلق لدراساتهم، ولذلك يمكننا القول إن «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» حجرُ أساس النظريات الطبية الصينية، وإن جميع كبار الأطباء الذين عاشوا في حقب السلالات الحاكمة التالية تعلموا منه.

يسمي الصينيون القدامى الكتب المهمة التي ترشد قارئها إلى بعض القوانين والحقائق أو التي ينبغي على عموم الناس قراءتها «الكتب المرجعية»، ومن الأمثلة عنها «مراجع كونفوشيوس الستة»، وكذلك «مراجع الشخصية الثلاثة» وهي مراجع يسهل فهمها. أما «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» فيقال عنه إنه «مرجعي» لأنه يبيّن جميع المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الطب الصيني التقليدي، كما أنه ينبغي على كل طالب يود تعلم هذا الفن أن يقرأه. وقد ورد في كتاب «هواي نان تسي» ما يلي: «كانت نتيجة احترام الناس الكبير لنظريات الأسلاف واحتقارهم بالمقابل لنظريات معاصريهم أنه صار من الضروري للكتب المرجعية أن تستخدم أسماء مثل شن نونغ أو الإمبراطور هوانغ»، ولذلك صارت الكلمة الصينية التي تشير إلى «الكتاب المرجعي» كثيراً ما تترافق مع كلمة «الإمبراطور» لزيادة أهمية الكتاب. وهذا يساعدنا في العثور على جذور الطب الصيني التقليدي، وفي استعراض ثقافة علم الصيدلة في تلك الأزمنة.

يعرض كتاب «حوليات هان» - وهو أول عمل بيبليوغرافي في الصيني - بعض هذه الكتب المرجعية، فيذكر وجود 18 مجلداً من «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ»، و37 مجلداً من كتابه المرجعي في الطب الخارجي، و9 مجلدات من «الكتاب المرجعي في الطب الباطني لبيان تشيويه»، و12 مجلداً من كتابه المرجعي في الطب الخارجي، و38 مجلداً من «كتاب باي المرجعي في الطب



(الأعلى) الصورة 2-1 «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ»، و«الموجز في المواد الطبية»، وكتب طبية أخرى من متحف الطب الصيني التقليدي (تصوير فان جيا شان).

(الأسفل) الصورة 2-2 «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ» متحف أجياو الصيني، (تصوير أ قوه تشينغ)

يلخص «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ» التجارب الطبية والنظريات العلمية خلال حقبتَي الربيع والخريف وما قبلهما، ويشرح بتفصيل كبير كيفية تشريح الجسم البشري، ووظائف أعضائه، والأمراض التي قد يتعرض لها، بالإضافة إلى تشخيص هذه الأمراض وعلاجها والوقاية منها. كما يضع الأساسات الفريدة التي يقوم عليها الطب الصيني التقليدي والمؤلفة من أربع نظريات كبرى هي: الظواهر الأحشائية (بما في ذلك القنوات الرئيسة والفرعية في الجسم)، ونشأة الأمراض، وطرائق التشخيص، ومبادئ العلاج.



الباطني»، و36 مجلداً من كتابه المرجعي في الطب الخارجي، بالإضافة إلى 25 مجلداً من الفصول المتعلقة بفروع الطب. واستناداً إلى ما سبق، نرى أن «الكتاب المرجعي في الطب الخارجي للإمبراطور هوانغ» كان مشمولاً في المراجع الصينية الببليوغرافية القديمة، إلا أن هذا الكتاب ولسوء الحظ مفقود اليوم، ولم يبقَ بين أيدينا إلا كتابه المرجعي في الطب الباطني. يعتقد بعض الناس أن «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» يركز بالدرجة الأولى «بالصحة الداخلية». وباختصار، الباحثون مختلفون حول طبيعة هذا الكتاب، ولكنّ المؤكد لدينا هو أن الكتاب يتألف من جزءين: الجزء الأول يتضمن الأسئلة المباشرة في 81 مقالة، ويشمل المجلدات التسعة الأولى من الكتاب. والجزء الثاني هو المحور المعجز ويشمل بدوره 81 مقالة تملأ المجلدات التسعة الأخيرة من الكتاب (انظر إلى الصورتين 2-1 و2-2).

كما هو واضح، عنوان الكتاب - «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» - بسيط ولا تعقيد فيه، ولكن نصه عميق المغزى وأسلوبه بليغ المبنى، وجميع المقالات فيه مشروحة بعناية بلغة فصيحة. يركز الكتاب على مختلف جوانب حياة الناس، وبالإضافة إلى توضيحه مبادئ العلوم الطبية وأصولها فهو يناقش مسائل تتعلق بعلم الفلك والجغرافيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا والفلسفة، ولذلك يمكننا أن نصف هذا الكتاب بأنه موسوعة تركز على حياة الإنسان (الصورة 2-3).



الصورة 2-3 «حاشية تكميلية للكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ - الأسئلة المباشرة» نسخة مكتوبة على الخشب تعود إلى حقبة سلالة مينغ، ومنقولة عن أصل يعود إلى حقبة سلالة سونغ، متحف الصين الوطني (تصوير نيي مينغ)

هذه النسخة التي كتبها قو تسونغ ده على الخشب عام 1550 منقولة عن نسخة ورقية تعود إلى حقبة سلالة سونغ. «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ - الأسئلة المباشرة» هو أول كتاب صُنِّف في نظريات الطب الصيني التقليدي، ويقال إن الإمبراطور شخصياً من كتبه، لكن الحقيقة هي أنّ من ألّف الكتاب الذي اكتمل بشكله النهائي في وقت ما بين حقبتي «الربيع والخريف» و«الممالك المتحاربة»هم أكثر من شخص. يتألف الكتاب من 81 فصلاً، وهي موزعة على 24 مجلداً. يناقش الكتاب بعض المعتقدات الصينية، مثلاً «الين واليانغ» (وهما المبدأان اللذان يقوم عليهما وجود الأشياء) والعناصر الخمسة، قبل أن يناقش أحوال الأعضاء الداخلية والتشي (الطاقة الروحية في الأجسام) والدم ونقاط العلاج بالإبر وعلم نشأة الأمراض وطرائق التشخيص وأعراض الأمراض.



الصورة 2-4 تمثال تشي بو، رسم في كتاب «ألبوم تماثيل الأسلاف الأطباء»

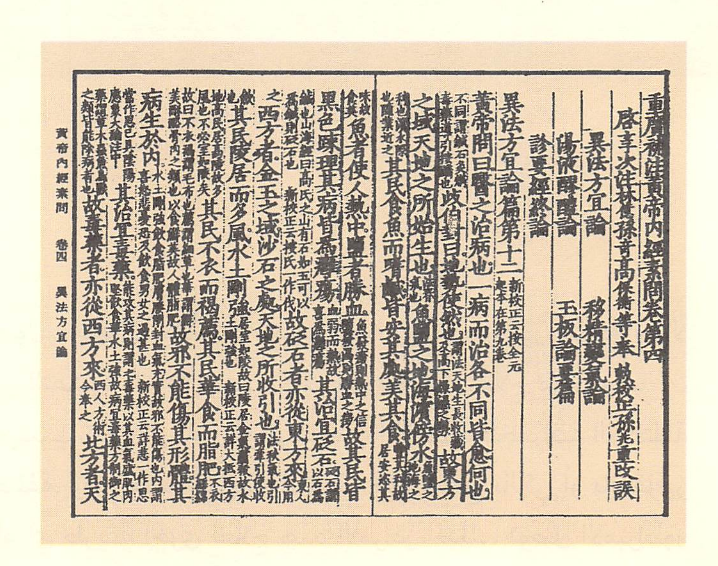
كان تشي بو شخصية مهمة خلال عهد الإمبراطور هوانغ في الصين القديمة، وعرف كذلك باسم «تشي هوانغ» لارتباط اسمه بعهد ذلك الإمبراطور. بحسب الأسطورة، لم يبرع تشي بو بالطب فحسب، بل كان بارعاً في الموسيقى ومراقبة الظواهر الطبيعية؛ حيث كان قادراً على قياس ظل الشمس نفسها! وكذلك كان صاحب حكمة بالغة ومواهب واسعة.

يناقش «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» من خلال حوارات تجري بين الإمبراطور هوانغ وخدم بلاطه نطاقاً واسعاً من المواضيع يشمل علم وظائف أعضاء الجسم البشري، وعلوم الأمراض، وكيفية تشخيصها وعلاجها والوقاية منها. وما يركز عليه الكتاب عبارة عن مناقشة مستفيضة حول العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ويعكس فهماً مهماً لكون الجسم الإنساني كلّاً عضوياً متكاملاً، مع التأكيد المستمر على وجود وحدة متناغمة بين الإنسان والطبيعة، وهو المبدأ الذي يقوم عليه الطب الصيني التقليدي ويعتبر جوهره وروحه.

استخدم الإمبراطور كنايتين في كتابه: «السحب الجارية» و«الهاوية» ليصف «طريق السماء»، أي قوانين الطبيعة. وما يعنيه هو أن قوانين الطبيعة تسير مثل السحب الجارية التي تسوقها الريح مع بعضها بعضاً؛ وإن كانت متفرقة ومتناثرة، مما يولّد تنوعاً لا نهاية له ضمن الطبيعة نفسها. وهذه القوانين واضحة مثل هاوية يستطيع الإنسان أن يقيس عمقها. استخدم الإمبراطور هوانغ لغة بسيطة ليبين الفكرة الأساسية التي يقوم عليها الكتاب بأسره وهي التالية: مع أن الأمراض التي يتعرض لها الإنسان كثيرة ومتنوعة، إلا أنها تشترك جميعاً في وجود أعراض محددة لها، وإذا تمكن

الناس من استغلال فرص معينة فبإمكانهم شفاء تلك الأمراض. وهذه هي الرؤية التي يقوم عليها «الكتاب المرجعي للطب الباطني» في نظرته إلى الطبيعة. (الصورة 2-4).

يقول الكتاب إن جميع النشاطات الفيزيولوجية الطبيعية في الجسم البشري وجميع التغيرات في هذه النشاطات والتي تؤدي إلى الأمراض على ارتباط وثيق مع العالم الطبيعي الخارجي. وعلى أساس وجهة النظر هذه، يربط «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» بين الإنسان والطبيعة، ذاكراً أن الإنسان - وكما هو الحال في أي شيء آخر في الطبيعة - يولد وهو يحتوي على طاقة كونية، وينمو بحسب قوانين الفصول الأربعة. ولذلك، على الإنسان أن ينمّي جانب «اليانغ» (القوة «الذكورية» في المعتقد الصيني القديم، وهي القوة المبدعة التي تولّد التغيير وترتبط مع الحركة) خلال فصلَي الربيع والصيف، كما عليه أن ينمّي جانب «اليين» (القوة الأنثوية في الطبيعة، وهي ضد اليانغ المكملة له، وترتبط مع السكون والأرض، أي مصدر الحياة الجسدية) خلال فصلي الخريف والشتاء. بالإضافة إلى ذلك، على الإنسان أن يحافظ على بقائه من خلال تحريك اليين واليانغ بين السماء والأرض وتغذيتهما، كما يجب أن تتناغم بيئة جسده الداخلية مع العالم الطبيعي، وأن تتكيف مع الطبيعة بأفضل شكل ممكن.


重廣補注黃帝內經素問卷第四
啟玄子次注林億孫奇高保衡等奉勅校正孫兆重改誤
異法方宜論 移精變氣論
湯液醪醴論 玉版論要篇
診要經終論
異法方宜論篇第十二
黃帝問曰醫之治病也一病而治各不同皆愈何也岐伯對曰地勢使然也故東方之域天地之所始生也魚鹽之地海濱傍水其民食魚而嗜鹹皆安其處美其食魚者使人熱中鹽者勝血故其民皆黑色疏理其病皆為癰瘍其治宜砭石故砭石者亦從東方來西方者金玉之域沙石之處天地之所收引也其民陵居而多風水土剛強其民不衣而褐薦其民華食而脂肥故邪不能傷其形體其病生於內其治宜毒藥故毒藥者亦從西方來北方者天
黃帝內經素問 卷四 異法方宜論

الصورة 2-5 عينة من «الأسئلة المباشرة»



الصورة 2-6 الممر التذكاري في الغابة ذات النُصب الألف، والمحفور عليه «الكتاب المرجعي في الطب الباطني للإمبراطور هوانغ»، مقاطعة تشينغ تشينغ، مدينة تشينغ يانغ، محافظة غان سو (تصوير تانغ قوه تسنغ)

في أحد فصول مجلدات «الأسئلة المباشرة»، طرح الإمبراطور هوانغ سؤالاً يستحق الكثير من التفكير: «لماذا توجد الكثير من الطرائق لعلاج مرض واحد؟»، فأجابه تشي بو: «بسبب تنوع البيئات الجغرافية». إذاً، البيئات الجغرافية المختلفة تسبب أمراضاً مختلفة، وقد يعتمد الطبيب أساليب مثل العلاج بالكي أو بالعقاقير الطبية أو بالإبر أو أي طريقة أخرى لعلاج هذه الأمراض. لذلك، توصل الإمبراطور

وخدمه من خلال مناقشتهم تلك إلى أن العلاج الطبي يجب أن يتم بحسب قوانين الطبيعة وإلا فسيؤدي إلى المشاكل. (الصورة 2-5).

لقد نشأ المفهوم العام الذي قام عليه «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» ضمن خلفية ثقافية وفلسفية عريقة في الصين القديمة؛ فالعلاقة بين السماء والأرض من أهم المبادئ الفلسفية التي شكّلت الفكر الصيني منذ عهد سلالة زو الغربية (القرن الحادي عشر قبل الميلاد)، قال لاوتسي: «يتبع البشر قانون الأرض، وتتبع الأرض قانون السماء، فيما السماء تتبع طرائق الطاو، والطاو يتبع قانون الطبيعة». وقد ذكر «كتاب التغيرات» أهمية الاتكال على النفس أيضاً. وهكذا «فالكتاب المرجعي في الطب الباطني» يشتمل على جوهر كل هذه الجوانب الحضارية والثقافية القديمة، ويبني نظرياته الطبية على أساسها المميز والفريد.

قال الطبيب وانغ بينغ الذي عاش خلال حقبة سلالة تانغ إن تطبيق الممارسات التي أوضحها «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» يصنع الأعاجيب. وقد ساهم هذا الكتاب في تعليم أعداد لا تحصى من الأطباء المشاهير عبر تاريخ الصين، ولا شك في أن إنجازات أولئك الأطباء تظهر الحكمة الواسعة التي نقلها هذا الكتاب لأجيال المستقبل. (الصورة 2-6).

| كتاب ريادي في الوصفات الطبية - رسالة في الأمراض الحُمِّية والمتنوعة

خلال أواخر حقبة سلالة هان، استمرت الحروب في الاندلاع، واضطر عدد كبير من الناس إلى النزوح وسط معاناة شديدة؛ إذ انتشرت الأوبئة بينهم، حيث لم تخلُ أي عائلة من البلوى. وفي ذلك الوقت، كتب معلم في فن الطب كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة»، وهو كتاب طبي تناقلته الأجيال التالية، كان ذلك المعلم هو تشانغ جي، وقد بجله الشعب الصيني لاحقاً معتبراً إياه «قديساً طبياً». (الصورة 2-7)

ولد تشانغ جي، الذي يدعى «تشانغ تشونغ جينغ»، في مقاطعة نان يانغ (في ما يسمى اليوم مدينة نانيانغ في محافظة خنان) سنة 150 ميلادية، وتوفي سنة 219. نشأ تشانغ جي على محبة العلم والدراسة، وقرأ الكثير من الكتب، حيث لفت انتباه خه يونغ الذي ينحدر من القرية نفسها، والذي أعجب بذكاء تشانغ جي وتوقع له مستقبلاً باهراً كطبيب ماهر. يمكننا أن نرى من خلال المقدمة التي كتبها هوانغ فو مي (في حقبة سلالة جين) على كتاب «جيا يي جينغ في الوخز بالإبر» أنه كان مفكراً عميقاً وصاحب مهارة طبية فائقة.

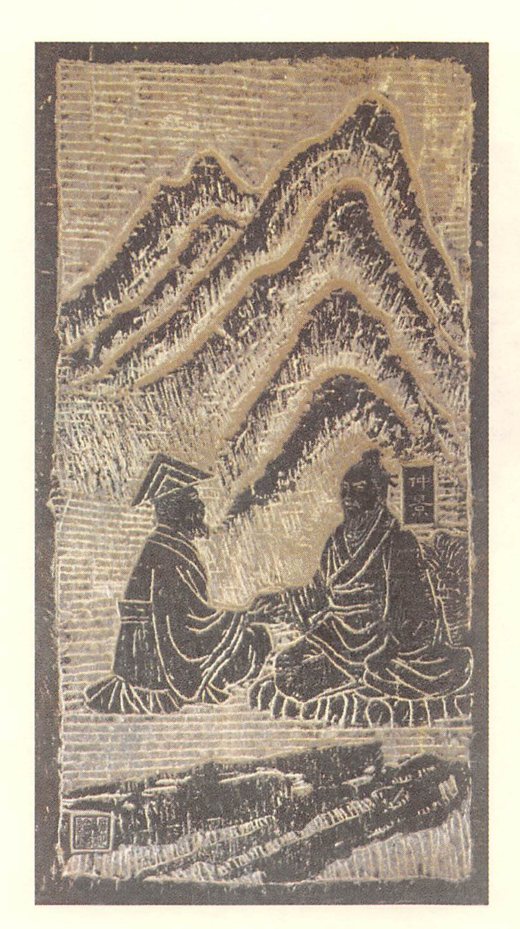
في إحدى المرات، رأى تشانغ تشونغ جينغ الشاعر «وانغ تسان» وقال له: «أنت مريض! حين تبلغ الأربعين سوف يتساقط شعر حاجبيك، وبعد ذلك بستة أشهر



الصورة 2-7 تشانغ تشونغ جينغ

تشانغ تشونغ جينغ (حوالي 150-219 ميلادية) - والذي كان يستخدم اسم «جي» في كتبه - ينحدر في الأصل من نيي يانغ في ولاية نان يانغ، وقد عاش في أواخر حقبة سلالة هان الشرقية. بالإضافة إلى كتابه: «رسالة في الأمراض الحُمية والمتنوعة»، ألف تشانغ تشونغ جينغ «رسالة في الأعضاء الداخلية الخمسة» و«وصفات علاجية للنساء» و«رسالة حول اليينغ والوي في الأعضاء الداخلية الخمسة» و«الكتاب المرجعي في خطوط الطول السماوية» و«رسالة في الفم والأسنان» وغيرها الكثير...

سوف تموت. لا يمكنك النجاة إلا إذا شربت حساء الحجارة الخمسة». كان وانغ تسان وقتها في العقد الثاني من عمره، ولم تعجبه كلمات تشانغ تشونغ جينغ، ولذلك لم يستمع إلى نصيحته، ولم يتناول العلاج الذي وصفه له. وبعد ثلاثة أيام، التقى الرجلان مرة أخرى وسأله تشانغ تشونغ جينغ: «هل شربت حساء الحجارة الخمسة؟»، وكان وانغ تسان لا يزال لا يصدق ما قاله الطبيب، ولكن كي يتجنب طول الجدال معه أجاب: «لقد تناولت الوصفة التي قلت لي عنها». فنظر تشانغ تشونغ جينغ إليه وقال: «بحسب ما يبدو عليك، أنت بكل تأكيد لم تتناولها! لماذا تهمل حياتك بهذا الشكل؟». لكن وانغ تسان رفض أن يصدق. وبالفعل، بعد مرور سنوات على هذا الحادث، تساقط شعر حاجبيه، وبعد مرور 187 يوماً على ذلك توفي (انظر إلى الصورتين 2-8 و2-9).



2-8 عينة من رسوم تشانغ تشونغ جينغ المتسلسلة، نصب تذكاري، معبد يي شنغ (قديس الطبابة)، مدينة نانيانغ، محافظة خنان (تصوير وانغ لي لي)

هذه الصورة محفورة في الرواق الشرقي من معبد قديس الطبابة، وتصور مشهداً من حياة تشانغ تشونغ جينغ وهو «يبذل قصارى جهده في دراسة المبادئ الطبية القديمة وتعلم عدد كبير من الوصفات». تظهر هذه الصورة تشانغ تشونغ جينغ وهو يشخّص المرض لأحد المرضى.

قال المؤرخ ليو تشي جي (سلالة تانغ) إن «تاريخ الممالك الثلاث» الذي ألفه تشن شو لم يشمل سيرة تشانغ تشونغ جينغ، واعتبر ذلك علامة على إهمال ذلك المؤرخ لواجبه. ولكن لما كان هذا التأريخ الرسمي لا يحتوي على أي ذكر لتشانغ تشونغ جينغ فقد وجدت الأجيال التالية أن عملية دراسة سيرة حياته وأعماله في غاية الصعوبة (الصورة 2-10).



(الأعلى) الصورة 2-9 معبد قديس الطبابة، مدينة نان يانغ، محافظة خنان (تصوير وانغ لي لي)

يقع معبد قديس الطبابة على ضفة نهر ونليانغ في دونغقوان، مدينة نان يانغ القديمة، ويشتمل على قاعة للأسلاف وقبر تشانغ تشونغ جينغ؛ عالم الطب العظيم الذي عاش أثناء حقبة سلالة هان الشرقية.

يحتوي المعبد أيضاً على ردهتين للنصب التذكارية التي تتضمن صوراً لتشانغ تشونغ جينغ في تسلسل لأحداث حياته، مع رسوم تصور 113 طبيباً مشهوراً من تاريخ الصين الطبي، وهما من أكبر الردهات التي تحتوي على تصاوير لأطباء من السلالات المختلفة في تاريخ الصين.

(الأسفل) الصورة 2-10 بوابة معبد قديس الطب المبنية على الطراز المعروف في زمن سلالة هان، مدينة نان يانغ في مقاطعة خنان (تصوير نيي مينغ)

استخدم طراز العمارة المتعارف عليه أثناء حقبة سلالة هان لدى إنشاء بوابة معبد قديس الطب، وقد قام قوه موه روه بحفر الحروف الصينية يي شنغ سي (معبد قديس الطب) على البوابة سنة 1959.



بحسب ما هو مكتوب في مقدمة رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة، كانت البلاد تمر بفترة تفشت فيها الأوبئة التي لم توفِّر أي عائلة؛ بما في ذلك عائلة تشانغ تشونغ جينغ نفسه. فقد كان في الأصل ينتمي إلى عائلة كبيرة تضم حوالي مئتي فرد، ولكن في أقل من عقد من الزمن توفي ثلثاهم. وبعد أن واجه تشانغ تشونغ جينغ هذه المصائب والمآسي قرر أن يدرس الطب، ومن خلال دراسته الدؤوبة لكتابات الأقدمين وتجميعه الوصفات من مصادر مختلفة قام بتصنيف كتابه: «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» على أمل أن تنقذ العلوم المذكورة فيه من تبقى من عائلته على وجه الخصوص، والفقراء في البلاد عموماً؛ حيث يسهم في توفير العناية الطبية للجميع. (الصورة 2-11).

يعتبر كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» من أشد الكتب تأثيراً في تاريخ الطب الصيني، كما أنه من الكتب الصينية الأولى المهمة في العلاج السريري. كان أول إسهامات هذا الكتاب أنه بنى القواعد الأساسية للعلاج القائم على التحليل الشمولي لحالة المريض. ولم يؤدِّ التمييز بين الأعراض إلى التوصل إلى قواعد كلية تتعلق بتحديد العلاج المناسب لأنواع الحمى خارجية المنشأ



الصورة 2-11 مقدمة رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة، نقش حجري، معبد قديس الطبابة، مدينة نانيانغ، محافظة خنان

يبرز حاجز حجري ضخم عند مدخل معبد قديس الطب، وقد نُقِشت عليه مقدمة رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة الذي كتبه تشانغ تشونغ جينغ مبيناً فيه سبب ممارسته لمهنة الطب.



فحسب، بل وكذلك أسس لقواعد التشخيص والعلاج التي يقوم عليها الطب الصيني السريري بأسره، فكان هذا الكتاب أساسياً للممارسات السريرية التي مارسها الأطباء اللاحقون، ناهيك عن أهميته بالنسبة إلى الباحثين؛ لأن بعضهم يعتبرونه روح الطب الصيني التقليدي وجوهره.

أما الإسهام العملي الأكبر لهذا الكتاب، فهو أنه قدّم للأطباء سلسلة من الوصفات المؤثرة والمفصلة والدقيقة، حيث يتمكنون وبفعالية من صنع وصفات مختلفة من خلال تغيير طفيف في مقادير الأعشاب ذاتها (الصورة 2-12).

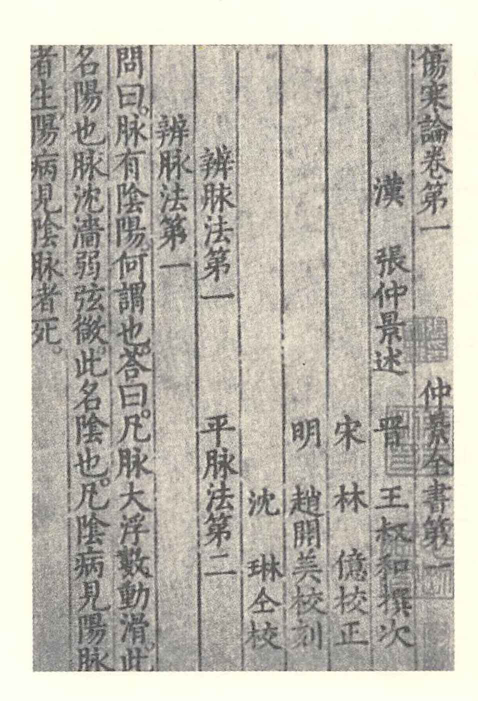
حتى في زماننا الحاضر، لا تزال الكثير من الوصفات المذكورة في «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» تلعب دوراً كبيراً. ومن الأمثلة على هذه الوصفات تلك المسماة «مستخلص غلي النمر الأبيض» لعلاج التهابات الدماغ، وحساء نبتة الإيفيدرا (العلندى) واللوز والجبس وجذور عرق السوس لمعالجة التهابات الرئتين، وحساء عشبة الراوند لمعالجة التهابات الزائدة المزمنة، وكرات الخوخ لمعالجة داء الصَّفَر. لقد أظهرت التجارب أن هذه الوصفات جميعها فعالة في العلاج السريري. كما طوّر كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» أنواع الطب الصيني التقليدي، وقد كانت هذه الاستحداثات أفضل بكثير من الكتب المختلفة التي كتبت عن الوصفات الطبية قبل حقبة سلالة هان. يحتوي هذا الكتاب على 12 نوعاً من الوصفات الطبية التي تشمل المستخلصات من غلي الأعشاب، والحبوب، والمساحيق، والدهون الطبية، وأملاح الاستحمام، والبخور الطبي، وقطرات الأذن، والتحاميل المهبلية والشرجية. لذلك اعتبرت الأجيال التالية من الأطباء كتاب تشانغ تشونغ جينغ في الأمراض الحمِّية والمتنوعة عملاً رائداً في الوصفات الطبية.

لكن تاريخ وصول هذا العمل الطبي إلينا معقد جداً، إذ فُقِد كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» بعد وفاة تشانغ تشونغ جينغ بوقت قصير. ذكر ليو دو تشو في «الدليل إلى الرسالة في الأمراض الحمّية خارجية المنشأ»أن كتاب تشانغ تشونغ جينغ شهد ثلاثة تغييرات رئيسة خلال تاريخه الطويل؛ كان أولها التغيير

الصورة 2-12 عود قرفة، وزهرة عود الصليب، وأعشاب صينية أخرى



الذي قام به وانغ شو خه، حيث حفظ لنا المجلدات 7-9 من «الكتاب المرجعي في النبض»؛ وهي تتضمن المحتوى الأساسي لكتاب «رسالة في الأمراض الحمّية والمتنوعة». أما التغيير الثاني فهو ما حفظه لنا المجلدان 9-10 من «حاشية على وصفات قيمة في الحالات الطارئة» الذي ألفه سن سي مياو في حقبة سلالة تانغ، والذي حفظ محتوى كتاب «رسالة في الأمراض الحمّية والمتنوعة خارجية المنشأ». أما الثالث فقد كان بعد بعض التصحيحات من قبل لين يي وأطباء آخرين في حقبة سلالة سونغ، حيث قُسِّم الكتاب إلى قسمين: «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة خارجية المنشأ»، و«خلاصة وصفات الغرفة الذهبية». إن هذه التقلبات التي مر بها الكتاب في تاريخه تعكس حقاً الإرث القديم للطب الصيني التقليدي. وبدون جهود أولئك الأطباء العظماء في المراحل التاريخية المختلفة ما كان لهذه الكتابات أن تصل إلينا اليوم؛ فتاريخ كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» نموذج مصغر عن تاريخ تدوين الطب الصيني التاريخي ككل (الصورة 2-13).



傷寒論卷第一　仲景全書第一
漢　張仲景述　晉　王叔和撰次
宋　林　億校正
明　趙開美校刻
沈　琳仝校
辨脉法第一　平脉法第二
辨脉法第一
問曰脉有陰陽何謂也答曰凡脉大浮數動滑此
名陽也脉沈濇弱弦微此名陰也凡陰病見陽脉
者生陽病見陰脉者死

الصورة 2-13 عينة من «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة خارجية المنشأ»، مطبوعة على الخشب خلال فترة حكم الإمبراطور وان لي من سلالة مينغ

قال الطبيب تشانغ تشي تسونغ (عاش في حقبة سلالة تشينغ): «من لا يفهم الكتب الأربعة لا يمكنه أن يكون كونفوشيوسياً. وكذلك من لم يفهم هذا الكتاب (رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة خارجية المنشأ) لا يمكنه أن يكون طبيباً». ولذلك، وبدءاً من حقبة سلالة جين، عمل أكثر من ألف عالم صيني وأجنبي على ترتيب كتاب «رسالة في الأمراض الحمّية والمتنوعة» وشرحه والتعليق عليه وإجراء الأبحاث حوله؛ مما جعله أكثر الكتب الطبية الصينية القديمة إثارة لاهتمام الباحثين بشكل مطلق. وبالإضافة إلى ما سبق، أثّر هذا الكتاب وبدرجات مختلفة في تطور العلوم الطبية في كوريا وفيتنام وإندونيسيا وسنغافورة ومانغوليا، ويظل بقسميه، «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة خارجية المنشأ» و« خلاصة وصفات الغرفة الذهبية»، الكتاب الأساسي الذي تدرِّسه كليات الطب التقليدي في الصين حتى يومنا هذا.

| فهم النبض من خلال المجاز - «الكتاب المرجعي في النبض»

يقول المثل الشائع بين الأطباء الصينين: «حتى لو تعلمت كتاب وانغ شو خه عن ظهر قلب، فأنت لا تزال تحتاج إلى خبرة الممارسة الطبية». وانغ شو خه هو مؤلف «الكتاب المرجعي في النبض»، وهو من الكتب المميزة في تاريخ الطب الصيني التقليدي، وقد نال شهرة واسعة، حيث ربط الناس قياس النبض في الطب الصيني التقليدي مع وانغ شو خه مباشرة (الصورة 2-14).

عاش وانغ شو خه (الذي يدعى أيضاً: وانغ شي) خلال حقبتَي مملكة وي ثم جين، وينحدر من مدينة قاوبينغ (التي تدعى اليوم جينينغ وتقع في محافظة شاندونغ. وتقول مصادر أخرى إن أصله من قاو بينغ الواقعة في محافظة شانغشي). لم يحفظ لنا التاريخ سنة ميلاد وانغ شو خه ولا سنة وفاته، ولكنه اشتهر بكونه وزير الشؤون الطبية الإمبراطورية؛ غالباً لأن هذا كان اللقب الذي أشار به لين يي (حقبة سلالة سونغ) إلى وانغ شو خه حين قابل بين الكتب الطبية. وبحسب ما ذكره قاو تشان في كتابه «نظريات في الحفاظ على الصحة»، كان طبع وانغ شو خه هادئاً، وكان على اطلاع واسع على كتب التاريخ، كما أحب الكتابة كثيراً، وأجرى أبحاثاً متعمقة في علوم النبض، وكذلك كان شديد الاهتمام بمرضاه، وقد شكَّل حدثان في حياته لحظات تاريخية في تاريخ الطب: كان الحدث الأول هو تجميعه وترتيبه كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية والمتنوعة» لتشانغ تشونغ جينغ، مما أتاح المجال لحفظ نظريات هذا الأخير الطبية



الصورة 2-14 صورة لوانغ شو خه

كان وانغ شو خه عالم طب خلال حقبتي وي وجين، وقد تفوّق في هذا العلم وأجرى الكثير من الأبحاث عنه، وعلّق أهمية كبيرة على فحص نبض المريض، وألف «الكتاب المرجعي في النبض» حول هذا الموضوع.

للأجيال المستقبلية. أما الحدث الثاني فكان جمعه بطريقة منهجية الكتابات القديمة المتعلقة بفحص النبض، وقيامه بأبحاث دقيقة حولها. فبعد غوصه في تلك الكتابات، أضاف إليها أبحاثه الخاصة وتجاربه الطبية الشخصية مرتباً إياها في كتابه الشهير: «الكتاب المرجعي في النبض»، والذي ألّفه في عشرة مجلدات ليصف به أول نظام متكامل في علم فحص النبض (الصورة 2-15).

脉經序

晉太醫令王叔和撰

脉理精微其體難辨絃緊浮芤展轉相類在心易了
指下難明謂沈爲伏則方治永乖以緩爲遲則危殆
立至況有數候俱見異病同脉者乎夫醫藥爲用性
命所繫和鵲至妙猶或加思仲景明審亦候形證一
毫有疑則考校以求驗故傷寒有承氣之戒嘔噦發
下焦之問而遺文遠旨代寡能用舊經秘述奧而不
售遂令末學昧於原本斥兹偏見各逞已能致微痾
成膏肓之變滯固絕振起之望良有以也今撰集岐
伯以來逮于華佗經論要決合爲十卷百病根原各
以類例相從聲色證候靡不該備其王阮傅戴吳葛

الصورة 2-15 عينة من «الكتاب المرجعي في النبض»

«الكتاب المرجعي في النبض» هو أول دراسة متكاملة في علم فحص النبض في تاريخ الصين الطبي. يتألف الكتاب من 97 فصلاً وعشرة مجلدات، وقد صنفه الطبيب الإمبراطوري وانغ شو خه خلال حقبة سلالة جين الغربية.

أصبح تشخيص الأمراض من خلال قياس نبض المريض أحد الجوانب المهمة في الطب الصيني التقليدي، ولكن التمكن من هذا العلم ليس أمراً سهلاً. وقد ذكر وانغ شو خه في مقدمة كتابه «الكتاب المرجعي في النبض» أن نظرية التشخيص من خلال النبض عميقة وغامضة؛ نظراً إلى صعوبة التمييز بين أنواع النبض المختلفة، ولأن بعض هذه الأنواع متشابه للغاية، حيث إنك حتى لو كنت تعرفها تمام المعرفة فقد لا تتمكن أصابعك من التمييز بينها. وإذا أخطأت في التشخيص فلن يتوافق الدواء الذي تصفه مع المرض، وبالتالي قد يشكل علاجك خطراً على المريض. وبالإضافة إلى ذلك، قد يُظهِر مرض واحد أكثر من حالة واحدة في النبض، كما يمكن لحالة نبض واحدة أن تشير إلى أكثر من مرض واحد!».

كلمات وانغ شو خه تظهر بوضوح صعوبة التعرف على أنماط النبض، والضرر الهائل الذي قد يتسبب به التشخيص الخاطئ، وتبيّن ضرورة تطوير معايير موحدة في هذا الإطار.



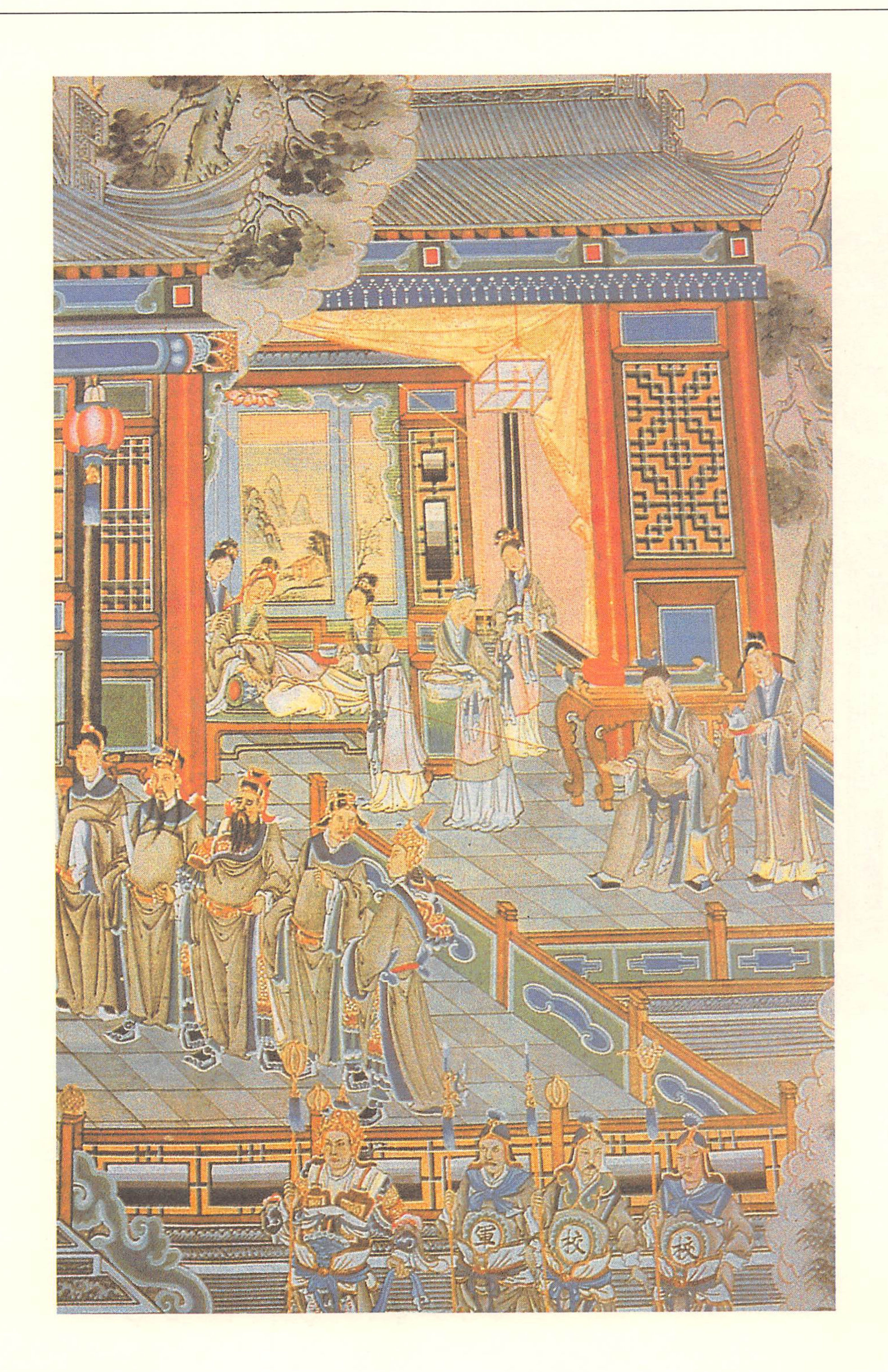
لكن في الفترة التي تطور فيها الطب الصيني التقليدي لم يكن وضع نبض القلب واضحاً أو مرئياً كما هو الحال في الأوعية الدموية أو العضلات أو العظام، بل كان مخفياً في رسغ المريض حيث يستحيل تمييزه دون فحص الطبيب له، وكذلك يستحيل على أي لغة أن تعبّر عن التنويع الكبير في حالات النبض حيث تتيح المجال للطبيب كي يستقرئها كلها ويفهمها، ناهيك عن تمكنه من معرفتها تمام التمكن. لكنْ بالرغم من ذلك، استخدم وانغ شو خه عدداً كبيراً من الأنماط اللغوية في كتابه، واستحدث تشابيه واستعارات لغوية وبلاغية كثيرة كي يصف أحوال النبض بطريقة حية قريبة من الأذهان (انظر إلى الصورتين 2-16 و2-17).

كانت لدى وانغ شو خه أسباب وجيهة لاستخدام هذه التعابير المجازية. فأولاً، كانت هذه الاستعارات والتشابيه رائجة بين الناس، ومن الأمثلة عليها وصفه لحالات نبض مختلفة ترتبط بأمراض مختلفة في الطحال، والتي شبهها «بـدجاجة ترفع رجلها» و«منقار عصفور» و«تدفق الماء» وهكذا دواليك... وسبب ذلك أنك إذا راقبت الطريقة التي تمشي بها الدجاجة فبإمكانك التمييز بين رفعها رجلها ووضعها إياها على الأرض، كما أن منقار العصفور قاسٍ وباستطاعة الطبيب الحاذق أن يشعر بدرجة من معينة في النبض الناجمة عن طحال لا يعمل جيداً. تصف تلك التعابير أشياء يراها الناس في حياتهم اليومية، حيث يتمكن القارئ من فهمها بسهولة.

ثانياً: يلفت استخدام التشابيه الانتباه إلى الفروقات؛ حتى مع وجود نقاط التشابه. فمثلاً يصف الكتاب النبض الناجم عن الرئة العادية السليمة بأنه مثل «سقوط أوراق شجر الدردار» في حين أن النبض الناجم عن عملها بشكل سيئ يبدو مثل «الرياح التي يتطاير فيها الشعر». فحين تتساقط أوراق شجر الدردار فهي تذهب إلى وجهة واحدة؛ نحو جذورها. أما الشعر الذي يتطاير نتيجة هبوب الريح فيذهب في جميع الاتجاهات. وهكذا، تتشابه حالتا النبض في أنهما تعكسان حالة

الصورة 2-16 مشهد يظهر فحص النبض من خلال حبل، لوحة جدارية، كهف ملك الطب، معبد تشيقونغ، مقاطعة تشي شان

تظهر هذه الصورة الطبيب سون سي مياو وهو يفحص نبض أرملة من النبلاء باستخدام حبل رفيع.





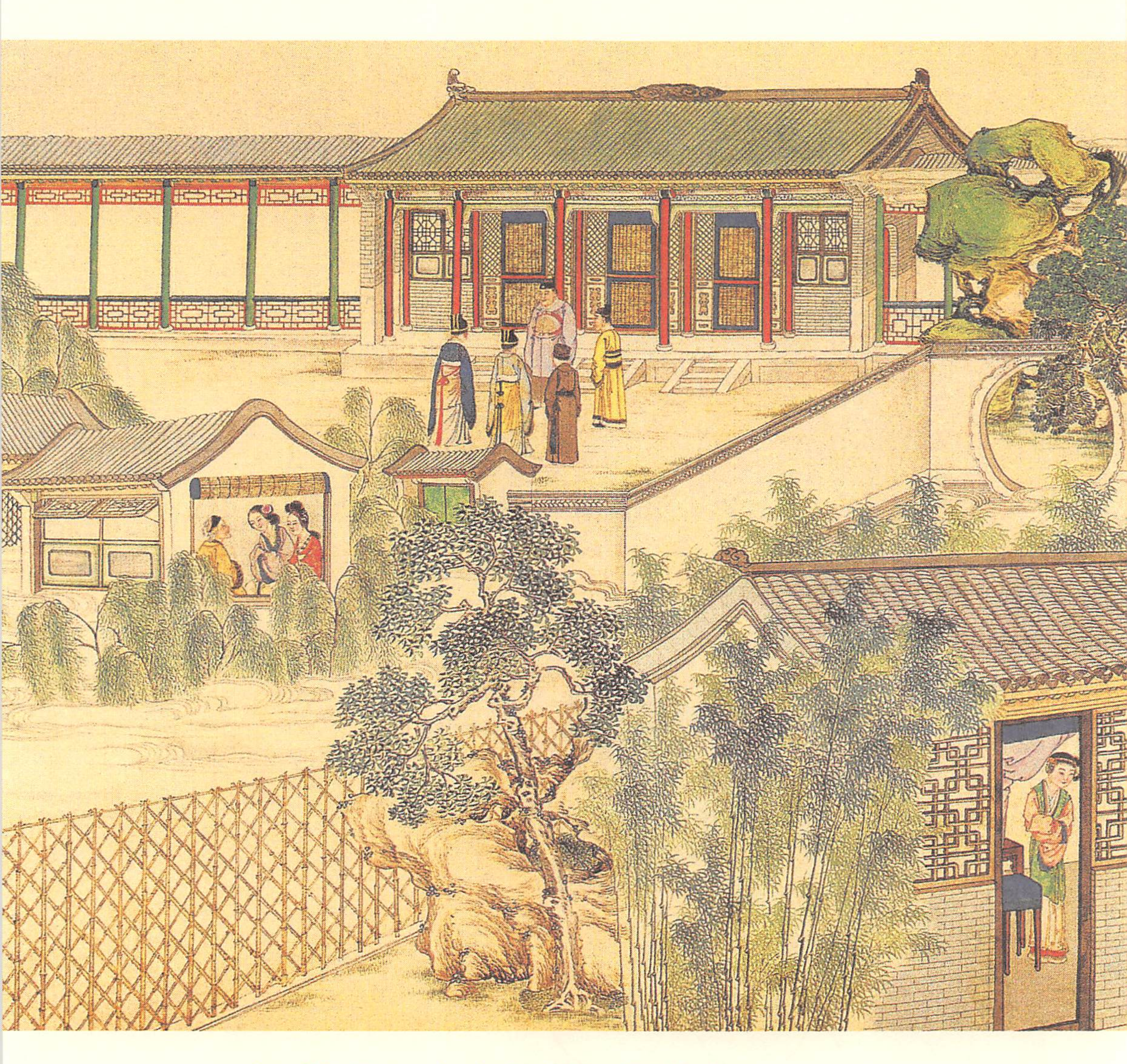


من «التدفق»، لكنهما تختلفان في أن إحداهما «لديها جذور» أما الأخرى «فلا جذر لها».

بعض التشابيه المستخدمة في «الكتاب المرجعي في النبض» أنيقة للغاية، مثل تشبيه وانغ شو خه للمريض الذي يعاني من ضعف في قوة «اليانغ» بالزيت الطافي على سطح الحساء؛ مما يعكس عدم استقرار حالة نبض من يعاني من هذه المشكلة.

يساعد استخدام التشابيه على توليد مشاهد حية ومحددة تمكِّن الناس من الوصول إلى إدراك المعنى المقصود منها، حيث يستوعبون الأشياء التي تشير إليها بدقة أكبر. وبالمقابل، إن استخدام التشابيه بشكل سيئ لا يفيد إلا في زيادة الناس ارتباكاً. لكن التشابيه والتعابير المجازية المستخدمة في «الكتاب المرجعي في النبض» دقيقة وتدل على الذكاء، وقد وظّفها المؤلف بشكل ممتاز لتوصيف أحوال النبض المختلفة؛ مما يعكس حكمة المؤلف وموهبته في اللغة وخبرته الطبية وقدرته الفائقة على ملاحظة دقائق الأمور. لكن هذا الكتاب لا يعكس حكمة وانغ شو خه وحده بالطبع. فكما ذكرنا سابقاً، لقد درس مؤلفنا جميع الكتابات القديمة السابقة حول علم النبض قبل أن يؤلف كتابه المرجعي هذا.

لعل أبرز ما يميز الكتب المرجعية التي ألفت في فن الطب الصيني التقليدي هو تبيانها



الصورة 2-17 الطبيب وانغ يفحص النبض في منزل مبني من القش، لفافة حريرية رسم عليها سون ون (حقبة سلالة شينغ)

يظهر هذا الرسم الطبيب وانغ وهو يتحسس نبض لين داي يوي كما وصف ذلك كتاب «حلم القصور الحمراء»



浮 芤 滑 实 弦
紧 洪 微 沉 缓
涩 迟 伏 濡 弱
长 促 短 虚 结
革 动 细 代 数
大 弹石 解索 雀啄 屋漏
虾游 鱼翔 釜沸

الصورة 2-18 خارطة النبض التي رسمها شي فا (حقبة سلالة سونغ)، رسم توضيحي من كتاب «دليل تشخيص الأمراض»

تظهر هذه الصورة بالتفصيل أشكال 33 حالة من أحوال النبض. كتاب «دليل تشخيص الأمراض» من بين الدراسات الصينية الأولى حول تشخيص الأمراض التي حفظها لنا التاريخ. وبالإضافة إلى وجود شرح مفصل حول علم النبض في هذا الكتاب فهو يتضمن أساليب أخرى في التشخيص مثل الاستماع إلى صوت المريض وتفحص لون جلده.

مبادئ العلوم الطبية. وينعكس غنى إرث الصين الحضاري في هذه الكتب من خلال مواهب مؤلفيها اللغوية، ومجال المواضيع والمعارف الواسع الذي تغطيه، والتاريخ الطويل الذي تصفه، والتقاويم الفلكية التي تستخدمها. كل هذا يظهر بوضوح أن الطب الصيني التقليدي نشأ ونما في تربة الحضارة الصينية الخصبة (الصورة 2-18).

يحتل كتاب «العمل المرجعي في النبض» مكانة في غاية الأهمية في تاريخ تقدم الصين الطبي، فمؤلفه لم يدوِّن فيه أول خلاصة معروفة تبيّن أحوال النبض القياسية الأربعة والعشرين فحسب، بل كشف فيه آفاقاً جديدة في قياس النبض، كما اشتمل أيضاً على شرح لأهمية أحوال النبض المختلفة من الناحية الطبية، وحفظ لنا كتابات طبية صينية قديمة تعود إلى ما قبل حقبتي وي وجين أضاعها تقلب الأزمنة والحقب. وفور إتمام هذا الكتاب، لاقى قبولاً فورياً لدى الأطباء والدارسين، وظل يلعب دوراً في غاية الأهمية؛ سواء أكان ذلك في الصين أم خارجها، بل كانت دراسته إجبارية أيضاً في القسم الطبي من البلاط الإمبراطوري أثناء حقبة سلالة تانغ.

وبالإضافة إلى ذلك، تبعت اليابانُ نظام سلالة تانغ في اهتمامها بهذا الكتاب، فصارت دراسته إجبارية في التعليم الطبي، كما وصل الكتاب إلى التيبت ولعب دوراً هاماً في تشكيل المدارس الطبية في تلك المنطقة. وصل علم النبض إلى الهند عن طريق التيبت، وبعد ذلك وصل إلى البلاد العربية، بل وكان له أثره في تطوير علم النبض في البلاد الأوروبية أيضاً. لا تزال دراسة «الكتاب المرجعي في النبض» إجبارية لكل من يريد أن يدرس الطب الصيني التقليدي، ولا يزال طلبة هذا الفن الطبي وممارسوه يغوصون في بحار علوم كتاب وانغ شو خه ويطبقونه في ممارساتهم التشخيصية.

الغناء في حديقة الوادي الذهبي - «الموجز في المواد الطبية»

بحسب إحدى الأساطير، بنى شي تشونغ، وهو رجل غني عاش خلال حقبة سلالة جين، حديقة ضخمة في لويانغ وسماها: «حديقة الوادي الذهبي». احتوت الحديقة على ممرات وبركة من الماء الأزرق، حيث تكامل المشهد في تناغم تام مع الأشجار الخضراء والخيزران الطويل والأزهار من مختلف أجناسها وأنواعها في لوحة جميلة، وقد كانت بحق من جنان الأرض! وبسبب جمال هذه الحديقة الأسطوري أصبحت صورة: «يوم الربيع المشمس في الوادي الذهبي» أحد المشاهد الثمانية في لويانغ. وإذا كانت هذه الحديقة قد أصبحت مضرباً للأمثال بفضل جمالها، فقد اعتبَر وانغ شي تشن عملاق الأدب الصيني خلال حقبة سلالة مينغ ووزير العدل في زمنه، «الموجز في المواد الطبية» - وهو كتاب في علم الصيدلة - «حديقة الوادي الذهبي» في مجاله. (الصورة 2-19).

الصورة 2-19 مشهد الربيع المشمس في الوادي الذهبي، مدينة لويانغ في محافظة خنان (تصوير نيي مينغ)





الصورة 2-20 لي شي تشن

لي شي تشن (1518-1593)، ويدعى أيضاً دونغ بي، ينحدر في الأصل من تشيتشو في محافظة هوبي، وكان يسمي نفسه: ناسك بينهو. كان لي شي تشن عالماً كبيراً بالطب وفنونه، وبعلوم الصيدلة أيضاً في الصين القديمة. وقد نال كتابه «الموجز في المواد الطبية» شهرة واسعة وتقديراً كبيراً في وطنه وفي الخارج على حدّ سواء، وقد ترجم إلى لغات أجنبية عديدة.

إن «الموجز في المواد الطبية» من دون شك أفضل أعمال لي شي تشن الذي عاش أثناء حقبة سلالة مينغ. ولد لي لعائلة من الأطباء في تشيتشو (والتي تسمى اليوم تشيتشون)، وقد كان لامع الذكاء ومثابراً في الدراسة، حيث نجح في الاختبار الإمبراطوري الذي كان يجرى على صعيد المقاطعة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ولكنه فشل في اجتياز اختبار مستوى الولاية ثلاث مرات. يقول المثل الصيني: «إما أن تكون رئيس وزراء ماهراً، وإما أن تكون طبيباً بارعاً». وقد تعلم لي شي تشن فنون الطب، وأدرج نظرته المثالية في إدارة شؤون الدولة في دراساته الطبية. تعرّف لي شي تشن خلال دراساته الشاقة التي امتدت عشر سنوات على جميع الأعمال المرجعية القديمة والتواريخ الرسمية والقصائد وأعمال الفلاسفة؛ مما منحه اطلاعاً حضارياً عميقاً وثقافة واسعة، وقد غطّت آثاره جميع مناطق الصين شمالها وجنوبها، ولا شك في أن هذا كله بنى أساسات متينة اعتمد عليها في تأليفه كتابه «الموجز في المواد الطبية» (انظر إلى الصورتين 2-20 و2-21).

لقد أظهر مؤلِّف «الموجز في المواد الطبية» إبداعاً عظيماً في نظام التصنيف الذي اتبعه في كتابه. فبدءاً من «كتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب»، وهو





الصورة 2-21 «الموجز في المواد الطبية»، متحف إيجاو الصيني
(تصوير أ قوه تشينغ)

كتاب الصين الأول في التداوي بالأعشاب، صنّف المؤلفون الأدوية بحسب نوعيتها؛ فهي إما ذات نوعية ممتازة أو متوسطة أو رديئة. لكن مؤلّف كتاب «الموجز في المواد الطبية» صنّف الأدوية إلى 16 فئة، وأدرج تحت كل فئة فئات فرعية أخرى. وقد اتبع مبدأ ثلاثي الفئات في التصنيف؛ بادئاً بتقسيم المواد إلى عضوية وغير عضوية، وبعد ذلك إلى حيوانية المصدر أو نباتية. اتبع الكتاب مخططاً واضحاً؛ فكان جيداً في ترتيبه، ومفصلاً في شرحه، ولكنه غير معقد، ويحتوي على ما يقارب مليوني كلمة أشار فيها المؤلف إلى 900 كتاب أُلِّفت في مراحل سابقة من تاريخ الصين، وجمع فيه 1892 نوعاً من الأدوية، بما في ذلك 374 نوعاً جديداً توصل إليها المؤلف نفسه. كما يشمل الكتاب 1109 صورة، و11096 وصفة طبية، وقد استغرق تحضيره ثلاثين سنة اعتمد فيها المؤلف على أكثر من 800 مرجع، وقد أعاد كتابته ثلاث مرات قبل أن يعتمده في شكله النهائي الذي نعرفه به اليوم.

أدرج المؤلف في كتابه معلومات عن أصول الأدوية، وأنواعها، وكيفية اعدادها، وطرائق تحضيرها، بالإضافة إلى مذاقها وفعاليتها وجميع التعليمات المتعلقة بها. كما شمل كتابه أيضاً عدداً من العناصر الثقافية الصينية؛ فقد قام لي شي تشن بذكر

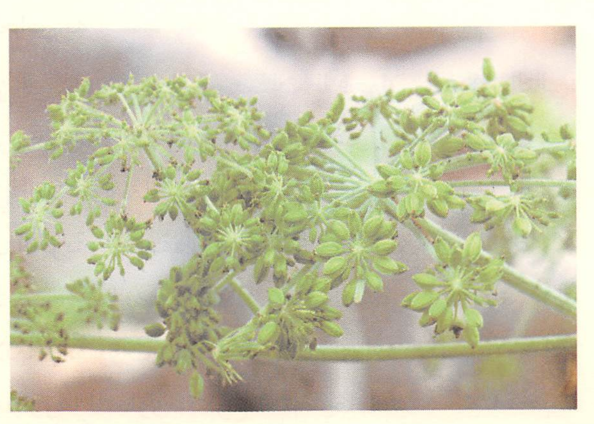
عدد كبير من القصائد الصينية القديمة في كتابه هذا، كما ذكر الكثير من العادات والتقاليد المحلية: مثل تقديم جوز التنبول للضيوف، وعادة تجميع عيدان الشيح وتحويلها إلى شكل إنساني وتعليقها أمام أبواب المنازل أثناء احتفالات قارب التنين على أمل التخلص من الغازات السامة (انظر إلى الصور 2-22، 2-23، 2-24، 2-25).

الأقحوان عشبة عطرة الرائحة، ويعرفها الكثير من الناس جيداً. من مزاياها أن زهرتها تظل متفتحة في فصل الخريف وقبل بداية الصقيع في حين تذبل معظم الأزهار الأخرى. وبحسب ما ذكره كتاب «الموجز في المواد الطبية»، عشبة



الصورة 2-22 عشبة الملاك (الأنجيليكا) الصينية، عشبة طبية (تصوير تشن تشياو يوي)

تعرف عشبة الملاك الصينية في الصين أيضاً باسمي شان تشي وباي تشي، وقد ظهر اسمها للمرة الأولى في كتاب شن نونغ المرجعي للأعشاب، طعمها حلو ولكنها لاذعة.



الصورة 2-23 نبتة عشبة الملاك الصينية (تصوير آن يا)

نبتة عشبة الملاك الصينية عشبة معمرة من فصيلة الخيميات، ذات جذوع قرمزية وجذور كبيرة، يمكن استخدامها كدواء.



الصورة 2-24 جوز التنبول، عشبة طبية صينية

جوز التنبول، ويعرف أيضاً باسم جوز الفوفل (الأريكا)، وهو بذرة نبتة نخل الفوفل، هذه البذرة ذات طعم مر ولاذع. يساعد جوز التنبول الطبي على تنشيط المعدة وإطلاق الغازات وإعادة النشاط إلى الجسد وشفاء مرض الزحار، كما يقوي الأسنان ويطرد الكائنات الطفيلية من الجسد ويسهل خروج الماء منه.

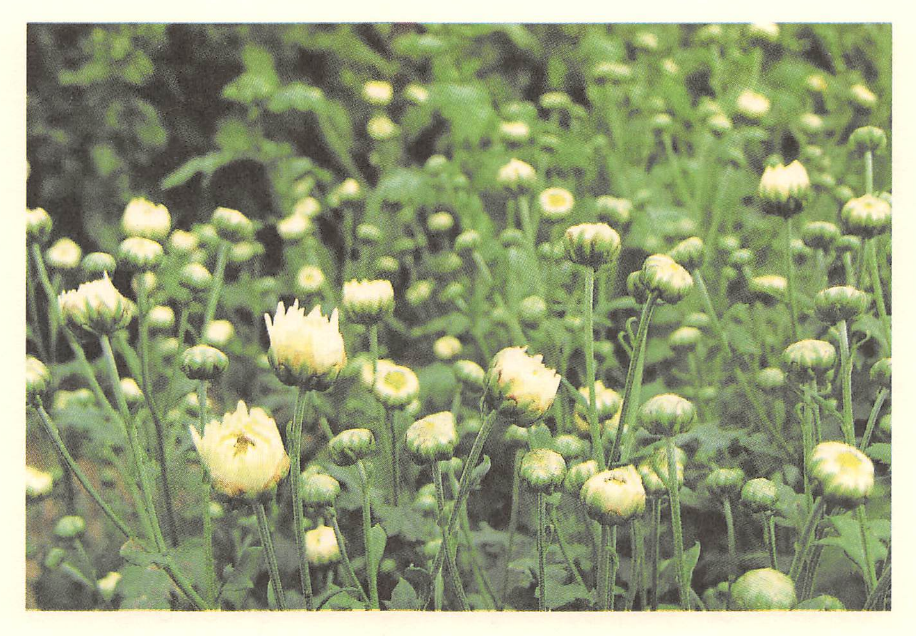


الصورة 2-25 نبتة الشيح

الشيح نبتة عشبية معمرة تنمو في آسيا وأوروبا. الوخز بالإبر مع التبخير، والعلاج بالتبخير عموماً من بين وسائل العلاج المعتمدة في الطب الصيني التقليدي. وفي الوسيلة الأولى، يتم تسخين النقطة التي سيتم وخزها في الجسم باستعمال البخار الناجم عن حرق الشيح، وفي الثانية من خلال استنشاق البخار الناجم عن حرق الشيح. ويستعمل الشيح المحروق في أكواب المحجمة كعلاج شعبي للروماتيزم.

الأقحوان ينقسم إلى مئات الأنواع، ويتميز كل نوع بجذوره وسيقانه وأوراقه ولون زهوره الخاصة به، ولهذه الجذور والسيقان والأزهار ذات الألوان المختلفة مزايا متنوعة، ولكل منها تأثيره الخاص به (الصورة 2-26).

يلخص كتاب «الموجز في المواد الطبية» صفات الأقحوان بالشكل التالي: «تنمو نبتة الأقحوان في الربيع، ويكتمل جمالها في الصيف، وتزهر براعمها في الخريف، وتطرح ثمارها في الشتاء. وبما أن هذه النبتة تعيش في فصول السنة الأربعة، وتمر بشتى الأحوال الجوية، لا تسقط أوراق الأقحوان أبداً حتى لو جفت، ولا تسقط زهورها حتى لو ذبلت». كما يصف المؤلف الأثر السحري لهذه النبتة؛ إذ يقول: «يمكن استخدام شتلاتها كخضروات، كما يمكن غلي أوراقها لتشرب كالشاي، ويمكن استخدام جذورها وبذورها للتداوي. تتنوع استخدامات هذه النبتة، حيث



الصورة 2-26 نبتة الأقحوان

الأقحوان نبتة عشبية معمرة تحب الطقس البارد وتقاوم الصقيع. يمكن استخدام رؤوس هذه النبتة كعشبة دوائية. أهم أنواع الأقحوان في الصين هي: أقحوان هاو في مقاطعة آنهوي، وأقحوان هانغ الأبيض في مقاطعة تشجيانغ، وأقحوان هو آي في مقاطعة خنان، وأقحوان تشي في مقاطعة خبي.

يمكن حشو الوسائد بأوراقها، كما يمكن غلي هذه الأوراق لتشرب».

خلال حقبة الممالك الثلاث، مدح كاتب صيني مشهور يدعى تشونغ هوي نبتة الأقحوان بقصيدة سماها: «خمسة أشياء جميلة في الأقحوانة» وقال فيها: «زهرتها المعلقة المستديرة تمد رأسها إلى السماء، ولونها الأصفر النقي يماثل لون الأرض، وبعد أن تزرع في الصباح سرعان ما تبرعم في المساء، ولا شيء يعكس مزيتها أكثر من زهرتها في اليوم الذي يسيطر فيه الجليد! وحين تضعها في فنجان فإنها تجري مع الماء وكأنها طعام الحوريات». لعلّ هذا هو السبب الذي دفع الحكماء في الأجيال السالفة إلى مدح الأقحوان، وهو الذي جعل شن نونغ يشمل هذه النبتة في كتابه؛ معتبراً إياها من النباتات الاستثنائية في الطب الصيني التقليدي.



ليس الأقحوان نبتة أنيقة ذات قيمة تزيينية فحسب، بل يشيع استخدام هذه النبتة كدواء يزيل السموم من الجسم ويقلل من أثر الحمى ويهدئ الكبد ويحسن حاسة البصر. ويمكن أن يؤدي تناول الأقحوان المغلي بالماء لفترة طويلة إلى تسهيل تدفق الدم في الجسم، وتقوية التشي (طاقة الإنسان الحيوية) باستمرار؛ فيجعل الإنسان يشعر بخفة في جسده، ويبطئ من أثر الشيخوخة عليه. كما أن تناول شاي الأقحوان الأبيض مع الزعرور البري والعسل يمكنه أن يقي من أمراض العينين. كانت الإمبراطورة تسي شي (سلالة تشينغ) شديدة الحرص على جمالها، وقد سعت للحصول على الوصفات الطبية التي تساعد في الحفاظ عليه من جميع أرجاء الصين، وكانت الوصفات المتعلقة بنبتة الأقحوان من بين تلك التي عثرت عليها؛ فقد كان «مستخلص الأقحوان لإطالة العمر» من بين الوصفات التي استخدمتها، حيث كانت أوراق أزهار الأقحوان البيضاء الطازجة تغلى في الماء، وبعد التخلص من بقايا النبتة كان العسل يضاف إلى المستخلص السائل. ولهذا المستخلص أثر في ترطيب الجلد وإزالة آثار الشيخوخة عنه (الصورتان 2-27، 2-28).

الصورة 2-27 الأقحوان، عشبة طبية صينية

هذه العشبة الصينية التقليدية تساعد الجسم على التخلص من الغازات والحرارة، كما أنها تنقي الكبد وتحسن البصر. أما فائدة هذه العشبة الأساسية فهي شفاء الالتهابات الخارجية المتعلقة بالهواء والحرارة وكذلك الدوار وألم الرأس وأعراض مرضية أخرى. يساعد شرب مستخلص الأقحوان بشكل دوري على منع ضربات الشمس ويزيل حرارة القلب ويحسن البصر.





الصورة 2-28 شاي الأقحوان

كثيراً ما يستخدم شيح البابونج في شاي الأقحوان. وتعتبر الأقحوانة البيضاء الكبيرة أو الصغيرة المنتجة في مناطق سوتشو وهانغتشو من أفضل المواد لصناعة شاي الأقحوان. ينصح بصناعة الشاي باستخدام 3 غرامات من الأقحوان في كل مرة، أو شرب مستخلص غلي الأقحوان بالعسل.

ليس كتاب «الموجز في المواد الطبية» موسوعة في استخدامات الأعشاب الطبية وحسب، بل هو تحفة تاريخية ذات أثر عميق في العلوم الطبية. وقال عنه وانغ شي تشن إنه يجب ألا يعامل كمجرد كتاب عادي في الطب، بل كقطعة فنية توصَّل المؤلف من خلالها إلى مبادئ الأشياء وحقائقها، وأضاف أنه يجب على الأباطرة وعامة الناس أن يحتفظوا بهذا الكتاب ويثمنوه. يظل كتاب لي شي تشن الذي وُصِف بأنه «حديقة الوادي الذهبي» في عالم الطب الصيني التقليدي يفاجئ البشرية بأسرها مع تقدم الزمن وتوسّع الاكتشافات الطبية.



الطب الصيني
التقليدي

الفصل الثالث

أعشاب طبية عطرة

المعرفة في خزائن الدواء

يتداول الصينيون مثلاً مفاده أن حوانيت بيع الأدوية الصينية التقليدية أمكنة مريحة للبال. إذ تحتل الخزائن في هذه الحوانيت الجدار بكامله، وتبدو ضخمة، وتحتوي كل خزانة على عدد كبير من الأدراج الصغيرة، وتُلصق عادة على كل درج أسماء ثلاث أعشاب طبية بأسلوب كتابة باللغة الصينية يدعى «تشنغ كاي»، وهي أسلوب في الخط يبدو قديماً وأنيقاً. أما أسماء الأعشاب فعادة ما تطلق العنان للخيال؛ إذ إن بعض هذه الأسماء يحمل وقعاً يأسر الألباب، ولعلك لم تسمع بأسماء الكثير من تلك الأعشاب! كما أن رائحة الأدراج عطرة، والأدوية العشبية فيها تجمع من الجبال ولها صور وأشكال مختلفة. (الصورة 3-1).

الصورة 3-1 حانوت بيع أدوية صينية تقليدية، متحف قوانغدونغ للتاريخ الحديث (الموقع السابق لمكتب قوانغدونغ للاستشارات) (تصوير لاو بيان)



يستخدم العاملون في حوانيت الأدوية العشبية تعابير مسالمة، ويتعمدون السير بهدوء وسكينة بين الخزائن وطاولة البيع، كما أنهم يفتحون الأدراج ويغلقونها بمهارة وهدوء وبسرعة البصر. وحين يطلب منهم الزائر وصفة ما سرعان ما يحضرونها وهي مرتبة في رزم يتفاوت عددها بين الثلاث والخمس، ولا تستغرق منهم عملية تحضير رزم الدواء وتسليمها للزبون إلا بضع دقائق (الصور 3-2 و3-3).

يركز الطب الصيني القديم على استخدام المكونات الطبية الأصلية؛ مما يعني أنه ينبغي الحصول على هذه المكونات من أماكن ذات بيئة طبيعية وجوية وبيولوجية محددة. وفي الوقت ذاته، إن تركيز الإنتاج إلى حد ما ودقة الزراعة والمعالجة جميعها تؤدي إلى أفضل نوعية، وأنجع فعالية لهذه الأعشاب. ركز سون سي مياو في كتابه «تتمة كتاب الوصفات القيمة في الحالات الطارئة» على منشأ الأدوية العشبية، حتى إنه قال: «تستخدم الأدوية بحسب مكان منشئها»، وكانت

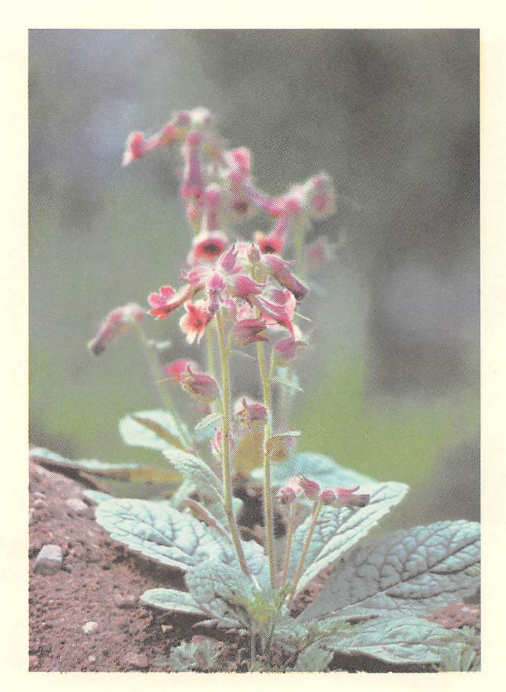
(الأسفل) الصورة 3-2: ميزان الأدوية (تصوير لاو بيان)

إن وزن المكونات بدقة من بين الخطوات الأساسية والمهمة في عملية خلط الأدوية الصينية التقليدية، ولا يمكن إلا للوزن الصحيح والدقيق أن يضمن نوعية الدواء وتأثيره الشفائي. ولذلك، الأطباء الصينيون التقليديون في غاية الدقة في تحديد الأعشاب التي يستخدمونها في وصفاتهم، وهم يأخذون بعين الاعتبار كل ما يجب فعله في كل عشبة.

(اليمين) الصورة 3-3 بعض وصفات الطب الصيني التقليدي المجهزة والمعبأة في رزمها (تصوير لاو بيان)







الصورة 3-4 نبتة الرهمانيا، حديقة الأحياء في جبل لينلو في قناة هونغتشي، مقاطعة خنان (تصوير يو يا هوي)

تزرع الرهمانيا في الكثير من الأماكن؛ بما في ذلك جيانغسو وتشجيانغ وبكين وتيانجين وسيتشوان. لكن رهمانيا هواي التي تزرع في مقاطعة خنان هي الفضلى. تتميز هذه النبتة بطبيعتها الزيتية والطرية، وقلبها اللامع، وطعمها الحلو إلى حد ما.

هذه النظرية هي حجر الأساس لمصطلح «الأعشاب الأصلية».

خلال حقبتي جين ويوان قام الطبيب الشهير لي دونغ يوان بتلخيص خبرته الطبية الطويلة وقال: «الأعشاب بل وحتى الحشرات التي تنشأ في أماكن مختلفة لها فعالية مختلفة». وخلال حقبة سلالة مينغ، أصبح مصطلح «الأعشاب الأصلية» جزءاً من الأدبيات الطبية، حتى إن كتاب «الموجز في المواد الطبية» قد استخدم هذا المصطلح. ومع حلول زمن حقبة سلالة تشينغ، كان الأطباء قد اكتشفوا أن «نوعية» الأدوية من بين العوامل الحاسمة في تحديد فعاليتها. وقد قال شو دوتشَن في «رسالة حول تغير الفعالية الطبية» إن الأدوية المجمعة من بيئتها الأصلية تكون ذات الفعالية الكبرى، أما تلك التي تزرع خارج النظام البيئي الأصلي الذي تنتمي إليه فذات فعالية أقل. لطالما مدح الناس تأثير بعض الأدوية المحلية مثل العوسج الصيني من منطقة نينغشيا، وعرق السوس من وسط مانغوليا، والجينسنغ من شي لين، ونبتة الأسطراغالوس دانغشن من شانغشي، وجذور الرهمانيا والبطاطا الصينية الحلوة والأقحوان من هواي تشينغ في مقاطعة خنان، ونبتَتي القبطيس وخانق الذئب من سيتشوان، ونبات السوس من جيانغسو، ونبتَتي التوكاهو والجنسنغ الكاذب من يوننان (الصور 3-4، 3-5، 3-6).



الصورة 3-5 القبطيس، منطقة دايي في مقاطعة سيتشوان (تصوير شياو ديان تشانغ)

ترتفع منطقة دايي في مقاطعة سيتشوان حوالي 1000 متر فوق سطح البحر، وتمتلك تربة كثيفة وجواً رطباً، وتنخفض درجة حرارتها بين 5 و7 درجات مئوية مقارنة مع سفح الجبل في الصيف، ولذلك فبيئتها هي المثلى لنمو القبطيس.



الصورة 3-6 الجينسنغ الكاذب من يوننان، من معروضات متحف المصادر الطبية في قوييانغ في مقاطعة قويتشو (تصوير تشِن يي نيان)

الجينسنغ الكاذب نبتة فريدة من نوعها ونادرة في الصين. وقد نشأت للمرة الأولى في المناطق الجبلية في العصر الجيولوجي الثالث قبل حوالي 25 مليون سنة، ولا تنمو اليوم إلا في جنوب غرب الصين نتيجة الظروف البيئية والجوية الخاصة التي تتطلبها.

وبالإضافة إلى ما سبق، إن قطاف النباتات المستخدمة في الطب الصيني التقليدي والوقت الأنسب لذلك القطاف في غاية الأهمية، ويتطلبان الكثير من المعرفة. وقد قال شن كوه، وهو من علماء حقبة سلالة سونغ الشمالية: «في الأزمنة القديمة، كانت النباتات العشبية التي تستخدم في صناعة الأدوية تقتطف في شباط وآب في الغالب، ولكن هذه الممارسة لم تكن صحيحة». واعتقد كوه أن الوقت الأمثل لقطف النباتات التي تستخدم أوراقها في التداوي هو الوقت الذي تنضج فيه تلك الأوراق. أما النباتات التي تستخدم براعمها في صنع الأدوية فمن المستحسن قطافها في شباط كما جرت العادة قديماً. في حين أن قطف تلك التي تستخدم زهورها في صنع الأدوية ينبغي أن يتم عندما تتفتح تلك الزهور، أما تلك التي تستخدم ثمارها فمن المستحسن أيضاً الانتظار ريثما تنضج الثمار. وبما



أن درجة حرارة الهواء تتغير في الأوقات المختلفة فهذا يغيّر أوقات القطاف من مكان إلى آخر. وقد قال باي جيوي يي في قصيدته «زهور الدراق في معبد الغابة العظيمة»: «في آخر الربيع، تساقطت كل الزهور هنا وهناك، ولكن زهور الدراق نضجت الآن على سفح الجبل». وهذه حقيقة شائعة بين كل الزهور. فعلى سبيل المثال، إن ثمرة العوسج الصيني تنضج تدريجياً بين حزيران وتشرين الثاني من كل سنة. وحين يتحول لون الثمرة من الأخضر إلى الأحمر أو البرتقالي، وحين يصبح ساق الشجرة ولُبُّها طريين عندئذ يمكن قطف ثمارها. فإذا قطفت الثمار قبل ذلك الأوان فلن تحافظ على مياهها بعد تجفيفها، أما إذا قطفت بعد فوات الأوان المذكور فسوف تحتوي على الكثير من السكر، وستسقط بسهولة وتتحول إلى لون غامق بعد تجفيفها في الشمس أو على النار (الصورة 3-7).

الصورة 3-7 امرأة من جماعة هوي الإثنية في نينغشيا تقطف ثمار العوسج الصيني (تصوير هوانغ جين قوه)

يقطف العوسج الصيني عادة كل 7-9 أيام خلال أول فترة نضجه بين منتصف شهر حزيران وأواخره، ثم كل 5-6 أيام خلال مرحلة الذروة الممتدة بين أوائل تموز وأواخر آب، ثم كل 8-10 أيام خلال مرحلته المتأخرة بين منتصف أيلول وأواخر تشرين الأول.





الصورة 3-8 هاون (تصوير لاو بيان)

يستخدم الهاون المصنوع من البورسلين أو الزجاج لسحق النباتات الطبية.

تُصنَع الأدوية الصينية التقليدية بأكثر من طريقة. فقد ذكر كل من كتاب «رسالة لَيْ غونغ في تحضير المواد الطبية وإنضاجها» - وهو من بين الكتب الأولى التي تتحدث عن تصنيع الأدوية في الطب الصيني التقليدي - وكتاب لي شي تشن المذكور آنفاً «الموجز في المواد الطبية» عشرات الطرائق لصنع الأدوية: الغسل، والتلميع، والتنظيف، والتقطيع، والقلي، والحرق، والطهي وغيرها كثير... كما تندرج تحت مُسمّى كل طريقة عدة أساليب فرعية للقيام بذلك. فمثلاً، تندرج تحت طريقة القلي عدة أساليب؛ مثل القلي الخفيف، والقلي إلى أن يصبح اللون مائلاً إلى الاصفرار، والقلي حتى تتصاعد رائحة العشبة، والقلي حتى يميل اللون إلى الأسود وهكذا دواليك... إن الهدف من ذلك هو إطلاق فعالية الدواء بشكل كامل، والتخلص من آثاره الجانبية الضارة، وتمكين الدواء من العمل على المرض مباشرة. ولذلك، لطالما ردد الناس القدامى أن معالجة الأدوية عمل يتطلب الكثير من المهارة، وأن المعالجة الجيدة تحدد فعالية الدواء (الصورة 3-8).

بالإضافة إلى ما ذكرناه، قد تُطلق أسماء مختلفة على الأدوية الصينية، وقد



الصورة 3-9 تونغ رن تانغ في بكين (تصوير تشِن تشونغ تشونغ)

يقال إن تشانغ تشونغ جينغ تولى أمور الدولة ومارس الطب في الوقت ذاته في قاعة مكتبه (وقاعة المكتب تعني تانغ باللغة الصينية)، فكان يجسّ نبض المرضى ويعطيهم وصفات طبية بينما كان يمارس مهامه كوالٍ لمقاطعة تشانغشا. بعد ذلك، شاعت أسماء مثل «تانغ يي» و«تانغ ياو» كما هو الحال في تانغ رين تانغ وجينغ شيو تانغ.

خصّص مؤلف كتاب «خلاصة في المواد الطبية» جزءاً من كتابه لتبيان الأسماء وتوضيح ما يشير منها إلى الدواء نفسه. فعلى سبيل المثال، نجد أسماء عديدة مثل قانقوي، وشانتشي، وبايتشي، وونوو وجميعها تُطلق على عشبة الملاك، وهي من النباتات المهمة في علاج أمراض النساء. وكذلك يُظهِر كتاب «مجموعة خطابات الطبيب وو - نظرية الإجماع العام حول الوصفات المكتوبة» أن جذر العقداء الطبي يُسمّى أيضاً وي روي، وأن البخور يُسمّى أيضاً شيون لو، وأن جذر الغاسترودِيا يُسمّى أيضاً دو ياو تساو، وأن الحليب البشري يُسمّى أيضاً نبيذ الدراق، وأن فضلات الحمام تُسمّى أيضاً تسوه بان لونغ.

يمكننا أن نختصر ما سبق بالقول إن حانوت الأدوية الصينية التقليدية يستحق الزيارة؛ لأنه لا يقدم لزبائنه الفرصة لشراء أدوية صينية تقليدية فحسب، بل ويقدم لهم الفرصة ليجربوا تراثاً قديماً لحضارة عريقة (الصورة 3-9).

«جيون-تشن-تسوه-شي»، ترتيب الأدوية الصينية

حين تذهب لرؤية طبيب متخصص في الطب الصيني التقليدي فسيكتب لك بكل تأكيد وصفة تتألف من عدة أعشاب صينية، ولكن فعالية هذا الدواء تعتمد على طريقة ترتيبه، فإذا كان ذلك متقناً فسوف يشفي الدواء المريض. والمبدأ الأساسي الأول في ترتيب الأعشاب هو «جيون-تشن-تسوه-شي».

«جيون» (وتعني الإمبراطور) هي كنية أباطرة الصين القديمة وأسيادها، والإمبراطور بالطبع هو حاكم البلاد. أما «تشِن» فتعني الوزير، وتشير إلى الأشخاص الذين كانوا يخدمون الإمبراطور مباشرة، ولذلك كثيراً ما ترى الحرف الصيني «تشِن» مكتوباً على العظام المستخدمة في العرافة، يبدو وكأنه شخص منخفض القامة وعيناه عموديتان في إشارة إلى معنى الانحناء. إذاً، ليس المقصود بالإمبراطور والوزير المصطلح السياسي فحسب، بل في ذلك إشارة إلى الهرمية في السيطرة والحكم أيضاً؛ فحين يستخدم الصيادلة القدامى حرفي «جيون» و«تشِن» في ترتيب الأعشاب التي تدخل في تركيب وصفة ما فذلك يدل على دور كل عشبة في تركيبة الدواء، ويعكس أيضاً المفهوم التراتبي في الحضارة الصينية القديمة. وفي أي تركيبة، يتم التعامل مع كل عشبة على أنها تشبه جندياً في الجيش، ولدى كل جندي مهمّاته الخاصة. كما يجب على جميع الجنود أن يتعاونوا بشكل وثيق ليحققوا النتائج المتوخاة. في الطب الصيني التقليدي، يتم ترتيب الأعشاب في أي وصفة بشكل متجانس ومتكامل كي تلعب كل عشبة دورها، وهذا ما يسمى «جيون-تشن-تسوه-شي». ولكن إذا تم تركيب الدواء بشكل غير منتظم وباستخدام الكثير من المحتويات، فهذا يسمى: «دواء من دون وصفة»! (الصورة 3-10).

بالنسبة إلى «جيون-تشن-تسوه-شي»، فقد فُسِّرت بطرائق مختلفة. فكتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب هو أول كتاب في الطب الصيني التقليدي، ويقسِّم الأدوية التقليدية إلى فئات: متفوقة ومتوسطة ومتدنية. وقد ذكر 120 دواءً «متفوقاً» اعتبرها من فئة «جيون»؛ وهي التي تعين الناس على استعادة شبابهم والاستمتاع بعمر أطول، كما أنها خالية من السموم ولا تؤذي الجسم البشري، لذا يمكن تناولها لفترة طويلة. أما في الفئة الثانية فقد ذكر الكتاب 120 دواءً متوسطاً



الصورة 3-10 مجموعة من الأعشاب

يمكن تصنيفها ضمن درجة «تشِن»، وهي تلك الأدوية التي يمكنها أن تنعش من يشعر بضعف في جسده، ولكن ينبغي توخي الحذر أثناء استخدامها. أما الفئة الأخيرة فتتضمن 120 دواءً متدنياً، وتندرج تحت تصنيف: «تسوه-شي»، وتستخدم في علاج أمراض معينة، وهي تحتوي على كمية كبيرة من المواد السامة، لذا لا يمكن استخدامها لفترة طويلة. وقد اعتبرت هذه التصنيفات ثابتة وغير قابلة للتغيير مثل ثبات إمبراطور البلاد!

قدّم «الكتاب المرجعي في الطب الباطني» فهماً آخر لهذا التصنيف، وهو التصنيف الذي لاقى بعد ذلك القبول الأوسع. ففي «الكتاب المرجعي في الطب الباطني- الأسئلة المباشرة- مناقشة النظرية الأكثر غموضاً وأهمية» قال تشي بوه في إجابة عن سؤال طرحه عليه الإمبراطور هوانغ: «يُسمّى المحتوى الأهم في الدواء: جيون، أما المحتوى الثانوي فيسمى: تشِن، في حين أن المحتوى الذي يحتل الدرجة الثالثة يُسمّى: شي». بعد ذلك، قام خه باي تشاي بشرح هذه الفكرة أكثر، مقدماً المزيد من التوضيح حول علاقة فئات المكونات الثلاث.

وإذا لخّصنا ما قيل في هذا الصدد، ففئة «جيون» تعالج سبب المرض الرئيس، بينما تحسِّن فئة «تشِن» من تأثير جيون أو تعالج الأعراض المرافقة للمرض، في حين تقلل فئة «تسوه» (وهي كلمة تعني: «الضابط المعاون») من تأثيرات أعشاب «جيون» و«تشِن» السمِّية، بينما تساعد فئة «شي» (وهي كلمة تعني: المرسال) على إيصال مفعول الأعشاب إلى الأعضاء التي يجب معالجتها. ولنضرب مثالاً على ما ذكرناه؛ تحتل وصفة مستخلص غلي الإفيدرا المركز الأول في كتاب «رسالة في الأمراض الحمِّية خارجية المنشأ»، كوصفة تستخدم بالدرجة الأولى لشفاء أعراض المتلازمة السطحية للزكام الناجم عن أسباب خارجية. وفي هذه الوصفة، الإفيدرا هي العشبة التي تلعب دور «جيون»، وهي تساعد الجسد على التعرق وإزالة أعراض المرض السطحية، فتريح التشي (طاقة الحياة) الخاصة بالرئتين، وتلعب دوراً مضاداً للربو. أما العشبة التي تلعب دور «تشِن» فهي عيدان القرفة التي تقوي من أثر الإفيدرا في التعرق وإزالة الأعراض السطحية، فيما يلعب اللوز دور «تسوه»؛ إذ إن طعمه مرّ كما أن طبيعته حارة، مما يتيح له التقليل من تشي الرئتين فيساعد الإفيدرا على التخلص من الربو. أما عشبة «شي» فهي عرق السوس المشوي، وهو أيضاً مرّ المذاق وذو طبيعة حارة، ويلعب دوراً في التنسيق بين الأعشاب الأخرى والحد من التعرق الزائد الذي قد تؤدي إليه عشبة الإفيدرا وعود القرفة. ولأن الإفيدرا وعيدان القرفة واللوز قادرة على الوصول إلى الرئة، ولأنها فعالة في العبور عبر قنوات الجسد فلا حاجة إلى عشبة «شي» في هذه الحالة لكي تلعب دور الدليل عبر هذه القنوات. لجميع الأعشاب الموجودة في أي وصفة أدوار مختلفة ومهمة. وكل منها تدعم تأثير الأخرى من ناحية، وتحد من مضارها من ناحية أخرى. لذا، هذه الوصفة فعالة للغاية في شفاء الزكام خارجي المنشأ، وقد أصبحت من الوصفات المشهورة التي تناقلتها الأجيال المتعاقبة في الصين (الصور: 3-11، 3-12، 3-13، 3-14).

في مقدمة كتاب «الوصفات الفعالة»، قال شن كوه (وهو عالم من حقبة سلالة سونغ الشمالية): «من السهل معرفة تأثير مادة واحدة بمفردها، ولكن معرفة تأثير عدة مواد تستخدم مع بعضها بعضاً صعب للغاية». فمثلاً، كل من الخل والبرتقال حامض الطعم، ولكن إذا مزجا معاً فإن طعم المزيج سيكون حلواً. وكذلك الكروتون





(الأعلى) الصورة 3-11 الإيفيدرا (تصوير شيونغ يي جيون)

تساعد الإيفيدرا على التعرق، وتزيل البرد، وتفرغ الرئة، وتريح النفس، وتدر البول لإزالة الاستسقاء من البطن.

(الأسفل) الصورة 3-12 عود القرفة

القرفة إجمالاً هي لحاء شجرة استوائية دائمة الخضرة اسمها العلمي «Lauraceae cortex cinnamomi»، وهذا اللحاء غير سام، وهو قوي الرائحة، وحار الطبيعة إلى حد ما، وله طعم حلو بعض الشيء.

(حب الملوك) والراوند مسهلان، ولكن إذا تناولهما أحد ما معاً فإن هذا يقلل من فعالية التغوط». لذا، ليس من الغريب أن نجد أن كتابة الوصفات أمر صعب. وقد قال وانغ آنغ - وهو طبيب عاش خلال حقبة سلالة تشينغ - في مقدمته على «مجموعة وصفات»: «المحاربون الذين يحسنون القتال لن يشعروا بأن صفاً ثابتاً من الرجال يعيقهم، وصيادو السمك البارعون لا يحفلون بنوع الأدوات التي يستخدمونها في صيد السمك. وكذلك، إن مرونة الطبيب في كتابة الوصفات تعتمد تمام الاعتماد على حسن تفكيره وتدبره». ما يعنيه هذا هو أن ترتيب الوصفات يجب أن يكون مرناً؛ مما يعني بدوره أن فكرة «جيون - تشِن - تسوه – شي» لم توفر مجالاً واسعاً لأطباء الماضي كي يستعرضوا مهارتهم الفذة وحسب، بل فتحت لهم مواضيع صعبة للبحث والتدبر.



الصورة 3-13 اللوز (تصوير شيوي شيوي مانغ)

اللوز مر، وغالباً ما يستخدم كثمرة تنعش الرئتين وتريح المريض من أعراض الربو، كما له أثر في غاية الأهمية في علاج بعض الأعراض المزمنة مثل التخلص من البلغم والسعال والربو وغيرها.



الصورة 3-14 عرق السوس (تصوير شيونغ يي جيون)

عرق السوس نبتة بقلية، تعالج جذورها من خلال طبخها مع العسل.



الاستخدامات المختلفة للحبوب والمساحيق والمستخلصات

يشتمل الطب الصيني التقليدي على الكثير من تركيبات الأدوية. وإذا حدث أن مررت بجانب حانوت لبيع الأدوية الصينية التقليدية، فسوف ترى على نوافذه لافتات تقول: «دواء صيني تقليدي: مستخلصات غلي، وحبوب، ومساحيق، ومستخلصات». الحبوب والمساحيق والمستخلصات هي التركيبات الأوسع استخداماً في الأدوية الصينية التقليدية. وقد حاول الصينيون القدامى أن يستكشفوا معاني الكلمات التي تطلق على الأدوية من خلال طريقة نطق الكلمة، وهو ما أسموه: «التدريب على الأصوات»، فقد قال تشينغ وو جي (وهو طبيب عاش خلال حقبة جين) في كتابه «حاشية على كتاب الأمراض الحمّية خارجية المنشأ» إن المستخلص عن طريق الغلي «مطهر» بحسب اشتقاقه اللغوي، وهو يستخدم بالفعل لتطهير المعدة والأمعاء. كما قال لي دونغ يوان، وهو أحد الأطباء الأربعة المشاهير في عهد سلالتي جين ويوان، في كتابه «قانون استخدام الأدوية»: «يقدّم مستخلص الغلي عادة لشفاء الأمراض الخطيرة، أما المساحيق فتستخدم لشفاء الأمراض المفاجئة، في حين أن مفعول الحبوب بطيء ولا يمكنها أن تُخلِّص من الأمراض بسرعة». تبيِّن هذه الكلمات الأدوار المختلفة التي تلعبها تركيبات الأدوية المختلفة التي ذكرناها (الصورة 3-15).



الصورة 3-15 رسم من «24 قصة مصورة عن تقوى الأبناء»: الإمبراطور وِن يعتني بأمه ويتذوق من أجلها مستخلص الغلي بنفسه (نسخ تسنغ شو تسونغ) (الصفحة 66)

يُقال إن الإمبراطور وِن من سلالة هان كان شديد البرّ بأمه، الأرملة بو، وكثيراً ما كان يمضي لياليه بعد النظر في أمور الإمبراطورية ساهراً ليعتني بها، وقد ظل يفعل ذلك طوال ثلاث سنوات، كما كان يتذوق مستخلص الغلي الذي تتناوله بنفسه. لقد أثّرت تقوى وِن وبرّه بأمه في البلاد بأسرها، وساهما في صنع ما سُمّي لاحقاً: «حكم الإمبراطورين وِن وجينغ المزدهر».

الاستخلاص بالغلي هو الوسيلة الأوسع استخداماً من بين تركيبات الأدوية الصينية التقليدية، كما أنه أقدم الوسائل المعروفة، ويُحضَّر من خلال غلي الأعشاب في الماء، وبعد ذلك عبر التخلص من رواسب الغلي. ترتبط نوعية مستخلص الغلي أشد الارتباط مع نوع الوعاء المستخدم لغلي الأعشاب. وإجمالاً، يُعتَقَد أن قِدر الفخار هي أداة الغلي الفضلى لصنع الأدوية؛ لأنها مصنوعة من مواد مستقرة لا تتفاعل كيميائياً مع المكونات الطبية، كما أنها موصل مقبول للحرارة.

تستخدم الحرارة الشديدة عادة قبل وصول المزيج إلى درجة الغليان، أما بعد ذلك فتستبدل بالحرارة منخفضة. وبالنسبة إلى بعض الأدوية الخاصة، كَتَب الأطباء ملاحظاتهم حول طرائق الاستخلاص. فمثلاً، يجب غلي بعض الأعشاب قبل غلي بعضها الآخر؛ لأنّ استخلاص مكوناتها الفاعلة أصعب مما هو عليه الحال لدى استخلاص المواد الفاعلة من الأعشاب الأخرى. وهي تُغلى عادة لثلاثين دقيقة، وبعد ذلك تخلط مع أدوية أخرى. أما الأعشاب التي يجب وضعها في القدر لاحقاً فهي عادة تلك التي تحتوي على زيوت سريعة التطاير أو روائح نفاذة، أو ربما تكون الأعشاب نفسها لا تحتمل الغليان لفترة طويلة، ومن الأمثلة على هذه الأعشاب: عشبة الزوفا المتجعدة العملاقة، والأنكاريا، والراوند وغيرها... وحين تطهى هذه المواد فقد يحتاج بعضها إلى عوامل مساعدة مثل قطعتين من الزنجبيل.

إذاً، إن فعالية مستخلص الغلي تعتمد على انتباهنا إلى الأدوات المستعملة في الغلي والفرن وتسلسل وضع المواد الدوائية في القدر، بالإضافة إلى التوقيت ومقدار الماء المستخدم. إن سبب الاستخدام الواسع لمغلي الأعشاب هو سهولة تعديله بحسب احتياجات المريض وظروفه الخاصة. فعلى سبيل المثال، إذا ذهب مريض مصاب بالزكام إلى طبيب صيني تقليدي فالمرجح أن يقول له الطبيب: «سأصف لك بعض خلاصات الأعشاب المغلية» بدلاً من إعطائه بعض الحبوب الباردة. إذ إن مستخلصات الأعشاب المغلية قادرة على معالجة العوامل التي أدت إلى المرض، كما يسهل على الجسم امتصاصها وتمتلك فعالية أفضل من الحبوب

(الصور 3-16 و3-17).



(اليسار) الصورة 3-16 الزنجبيل (تصوير لاو بيان)

يستخدم الزنجبيل عادة «كـدواء مرشِد» لأنه يساعد الجسد على التعرق، ويزيل الأعراض الخارجية، ويمنع التقيؤ؛ وبذلك يحسّن امتصاص الأدوية الأخرى واستخدام الجسم لها، كما يعزز مفعولها الطبي فيه.

(الأسفل) الصورة 3-17 قصعة تحتوي على مستخلص أعشاب مغلية جاهز للتناول (تصوير لاو بيان)





الصورة 3-18 حبة دواء صيني تقليدي

تصنع حبوب الدواء الصينية التقليدية من مسحوق دواء ممزوج مع مجموعة أخرى من المكونات التي تحول المادة الناتجة إلى كرة صلبة ومستديرة. وتشمل هذه الحبوب الحبوبَ المعسولة الكبيرة والصغيرة وحبوبَ الماء. أكثر أنواع الحبوب الكبيرة المعسولة شيوعاً هي تلك التي تُصنع من مزج مساحيق الأدوية مع العسل المكرر، وبعد ذلك يتم تدوير الكتل الناتجة لتصبح كروية الشكل، ثم تغلّف بالشمع الأبيض. ويُكتب اسم الدواء على سطح الشمع إما باللون القرمزي أو الذهبي أو الأسود. وفي اللحظة التي يُزال فيها الغلاف الشمعي تُشَمّ رائحة الدواء فوراً. يستغرق تحلل الحبة في جسم الإنسان بعض الوقت، ولذلك قد يطول الوقت بعض الشيء للحصول على تأثيرها الفعال، ولكنه يستمر بعد ذلك لوقت طويل. وبالإضافة إلى ما سبق، هذا النوع من الأدوية المركبة مريح للطبيب لأنه سهل التخزين، كما أن تحديد المعايير فيه أقل صعوبة، وهو مناسب للمصابين بالأمراض المزمنة المضطرين للاعتماد على الدواء لفترة طويلة (الصورة 3-18).

يُحضّر المسحوق من خلال سحق المكونات الطبية، وبعد ذلك يتم تجفيفها إلى أن تصل جميعها إلى درجة الجفاف نفسها. تحتوي المساحيق على حُبَيبات سميكة وأخرى رقيقة، ويمكن الاستفادة من هذه المساحيق عن طريق ابتلاعها أو الاستخدام الجلدي/ الخارجي. وربما كانت الحبيبات المضادة للإنفلونزا أكثر أنواع المساحيق الدوائية شيوعاً (الصورة 3-19).

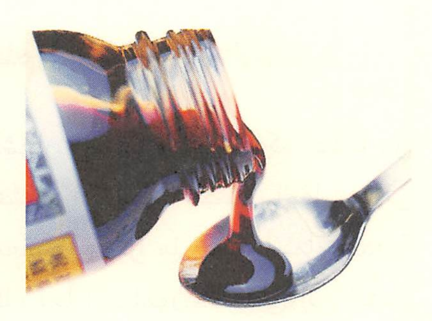


الصورة 3-19 دواء صيني تقليدي مسحوق (تصوير لاو بيان)

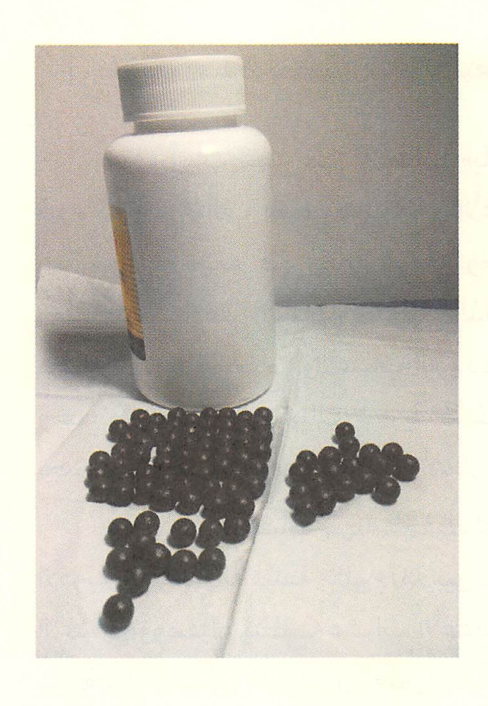
يصنع المسحوق من خلال «سحق» الأعشاب بالهاون، ويتم تناوله مع الماء. إن تأثير المسحوق يكون بطيئاً في البداية إذا قورن مع مستخلصات الغلي. ولكنّ تأثير مكوناته الفعالة يظل في الجسد لفترة طويلة أيضاً لأنه يعمل مباشرة على المعدة والأمعاء.

أما المستخلصات فتصنع من خلال طهي المكونات بالماء أو الزيت النباتي حتى تتحول المادة الناتجة إلى معجون كثيف. وبعد ذلك، تصنف المعاجين إلى تلك التي تتناول عبر الفم وتلك التي تمسح على الجلد. تصنع المستخلصات التي تتناول عبر الفم من خلال طبخ الدواء مراراً وتكراراً والتخلص من الرواسب؛ إلى أن نحصل على المستخلص المعجوني الذي نسعى إليه من خلال إضافة العسل أو السكر أو سكر النبات. تكون الأدوية المقوية عادة مستخلصة بهذه الطريقة. ومن الأمثلة عليها شراب شيولي الذي يلعب دوراً في تخفيف حرارة الجسد والتقليل من جفافه وإنعاش الرئتين وإراحة المريض من الحمى. ومن الأمثلة الأخرى شراب الفيرتلاريا والإكي دنيا الذي يساهم في تغذية الرئتين، ويخلصهما من البلغم، ويخفف من السعال والربو (الصورة 3-20).

بالنسبة إلى تناول الأدوية لفترات طويلة، ابتدع الأطباء الصينيون التقليديون الكثير من أشكال تقديم الجرعات. فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً، توجد لدينا



(الأعلى) الصورة 3-20 مستخلص طبي صيني تقليدي



(اليسار) الصورة 3-21 كريات دوائية صينية تقليدية

الأدوية السائلة والمقطرة والأقراص الطبية. قال تاو هونغ جينغ الذي عاش خلال حقبة سلالة ليانغ: «بالنسبة إلى الأمراض المختلفة، قد يكون الحل هو الحبوب أو المساحيق أو الأعشاب المغلية أو الدواء السائل أو المستخلصات، واستخدام أي من هذه الحلول يعتمد على الأسباب الجذرية التي أدت إلى المرض». يمكننا أن نختصر ما قيل في هذا المجال بالقول إن غلي الأعشاب يظهر فعالية سريعة للغاية، ولذلك تتطلب الأمراض المزمنة استخدام الحبوب أو المستخلصات، وهذه الأخيرة أبطأ تأثيراً من غلي الأعشاب ولكنها أسرع تأثيراً من الحبوب. بينما قد تكون الأدوية السائلة المخدرة هي الفضلى لأمراض مثل التهاب المفاصل والشلل.

| طرائق جيدة لضمان حسن التعلم - أشعار غلي الأعشاب

تُعرَف أبيات شعر غلي الأعشاب «بأشعار الوصفات» أيضاً. وكما ذكرنا من قبل، كثيراً ما تتألف مستخلصات غلي الأعشاب في الطب الصيني التقليدي من عدة أعشاب تُجَمَّع في عملية مرهقة ومعقدة، وكثيراً ما تصبح أسماء الأدوية مملة ويصعب على المتعلم حفظها، ولذلك لجأ المعلمون القدامى إلى الشِّعر محوِّلين أسماء الوصفات والأعشاب التي تتضمنها تلك الوصفات ومقاديرها ونسبها وخصائص تركيبها إلى أبيات شعرية تتألف من خمس كلمات أو سبع، ثم يتم تجميعها في قصائد، وهكذا ولد فن أشعار الوصفات.

أشعار غلي الأعشاب سهلة الحفظ، لذا تسهِّل مهمة المتعلم؛ إذ إن وصْفات الأدوية الصينية التقليدية تتنوع ما بين وصفات لا تتطلب إلا عدداً قليلاً من الأعشاب ووصفات تتطلب عشرات الأعشاب. وإذا قلنا إن لدينا وصفة تتألف من دزينة من الأعشاب فلن يكون تعلمها مشكلة؛ إذ متى اعتادت ذاكرة الإنسان على خطوات تركيب الدواء ومقادير الوصفة يصبح الأمر سهلاً عليه، ولكن المشكلة هي أن لدينا مئات الوصفات، لذا قد يصبح تعلمها كلها أمراً صعباً للغاية. وهنا تلعب أشعار غلي الأعشاب دوراً مهماً في حل المشكلة؛ فهي مختصرة وسهلة القراءة، ويركِّز كل منها على شيء معين؛ مما يُسهِّل حفظها. ويمكن استخدامها لحفظ الوصفات الأساسية، والوصفات الشائعة. وينطبق على هذا الفنّ المثل الصيني القائل: «إذا قرأت كتاب ثلاثمئة قصيدة لتانغ بطلاقة ولم تؤلف قصيدة بنفسك، إذاً يمكنك على الأقل أن تُنشد بعض القصائد التي ألفها آخرون». ولذلك، أصبح حفظ بعض قصائد الأعشاب الطريقة المثلى لكتابة الوصفات الطبية! (انظر إلى الصورة 3-22).

إنّ حفظ أشعار غلي الأعشاب بإمكانه أن يساعد الطبيبَ بشكل كبير؛ لأن هذه القصائد لا تلعب دور المرشد في وصفة الأدوية فحسب، بل تساعد الطبيب في التعامل مع بعض المواقف المعقدة؛ إذ تبسِّط الأمور كي لا يشعر الطبيب بالعجز أمام كل الوصفات المتاحة له.

حين يرى الطبيب مريضاً مصاباً بالحمى والارتجاف ووجع الرأس واحتقان الأنف والعطاس والسعال إلخ... فإذا كان مطلعاً على أبيات شعر غلي النعناع البري


陳存仁處方

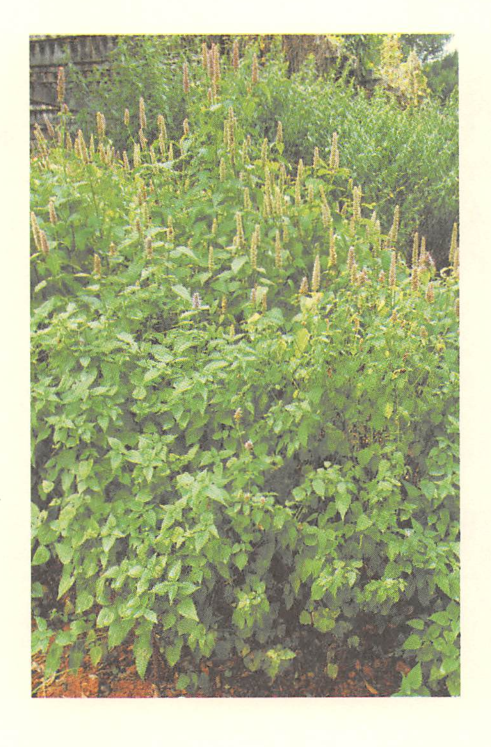
上午門診 九時至十二時止
下午門診 下二時至四時

陳存仁處方

上午門診 九時至十二時止
下午門診 下二時至四時

الصورة 3-22 وصفة كتبها الطبيب تشن تسون رن من يوي شنغ تانغ في بكين، مركز معرض الزراعة الوطني (تصوير نيي مينغ)

الياباني والجزر الأبيض والمسحوق القاهر للسموم والعسلة اليابانية ومسحوق الفورسيتيا فسوف يفكر بسرعة بإزالة الأعراض الخارجية باستعمال أدوية لاذعة. فإذا شخَّص المرض بأنه ناجم عن الرطوبة المؤذية فعندها سيستخدم النعناع البري الياباني والجزر الأبيض والمسحوق القاهر للسموم، أما إذا كان تشخيصه أن المرض ناجم عن حرارة الهواء فسوف يستخدم العسلة اليابانية ومسحوق الفورسيتيا. إذاً، ما على الطبيب إلا أن يشخِّص المرض بالاستناد إلى أبيات شعر غلي الأعشاب المتعلقة بالحالة التي بين يديه (الصور: 3-23، 3-24، 3-25).



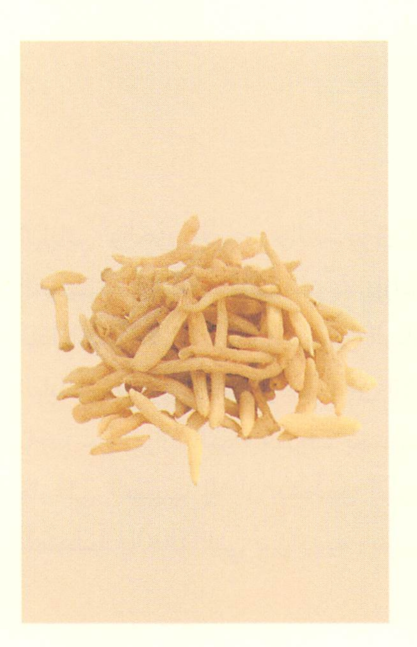
(أعلى اليسار) الصورة 3-23 الزوفا المتجعدة العملاقة (نبتة)، حديقة كونمينغ النباتية، محافظة يوننان (تصوير يانغ شينغ بين)

(أسفل اليسار) الصورة 3-24 نبتة لحية الثعبان (تصوير وو دي في)

جذور لحية الثعبان، نبتة من أسرة النوليناواث.

(أسفل اليمين) الصورة 3-25 نبتة لحية الثعبان من الأعشاب الصينية التقليدية (تصوير شيونغ يي جيون)

جذور نبتة لحية الثعبان؛ وهي عشبة حلوة المذاق بعض الشيء وذات طبيعة باردة، وهي تساعد على شفاء جفاف الرئتين والسعال الجاف والعطش الناتج عن مشاكل في تدفق سوائل الجسد، والأرق الناتج عن تكدر المزاج، والإمساك الناتج عن جفاف القنوات المعوية.



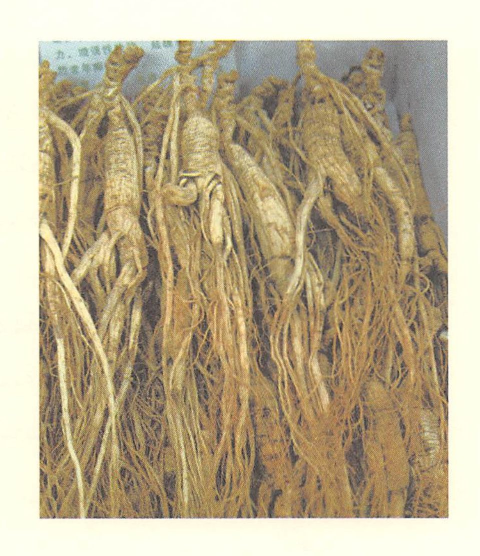


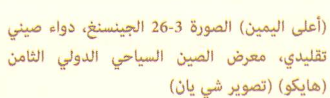
تظهر أبيات أخرى مصدر الوصفات الأصلي، أو أول مصدر سجلت فيه. ومن الأمثلة على ذلك مستخلص غلي نبتتَي الراوند وخانق الذئب، ومصدر هذه الوصفة كتاب «خلاصة الوصفات من الغرفة الذهبية»، وكذلك المستخلص المفيد للمعدة من كتاب «تحليل مفصل للأمراض الساخنة»، ومستخلص غلي ساق القصب من كتاب «وصفات قيّمة للحالات الطارئة». كما تُبيِّن أبيات شعرية أخرى معلومات حول اسم الطبيب الذي اخترع الوصفة، وتشمل وصفة إزالة حرارة الصيف للطبيب وانغ، ومستخلص الغلي المتمم لطاقة التشي الحيوية، ومسحوق تشيان هينغ من عائلة يانغ. هذا كله يساعد المتعلمين على فهم التخصص العلمي الذي يركز عليه كل من الكتب المرجعية المذكورة في الأشعار.

توجد الكثير من الكتب المهمة التي جمعت أشعار غلي الأعشاب في الطب الصيني التقليدي، ولا شك بأن كتاب «أشعار غلي الأعشاب» الذي ألفه وانغ آنغ خلال حقبة سلالة تشينغ أشهر تلك الكتب على الإطلاق، ولذلك يُقال إن طالب علم الطب الصيني التقليدي يجب أن يقرأ أربعة كتب مرجعية في غاية الأهمية: «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني»، و«رسالة في الأمراض الحمِّية خارجية المنشأ»، و«خلاصة وصفات الغرفة الذهبية»، و«تحليل دقيق للأمراض الوبائية الساخنة»، كما عليه أن يقرأ أربعة أعمال مرجعية مهمة أخرى: «ثلاثة مراجع في صفات الطب»، و«دراسة النبض»، و«أغانٍ طبية»، و«أشعار غلي الأعشاب». إن اشتمال هذه المجموعة على كتاب «أشعار غلي الأعشاب» يظهر أهمية هذا الكتاب بالنسبة إلى متعلمي الطب الصيني التقليدي.

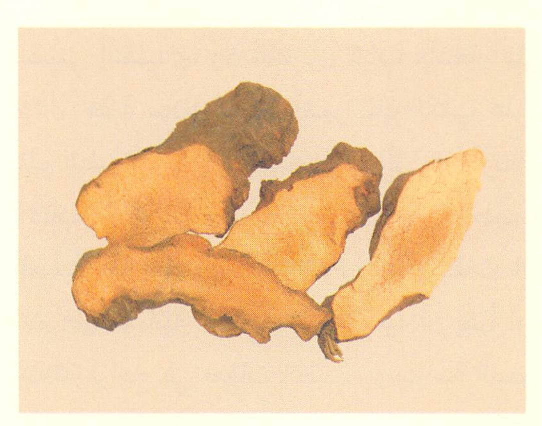
يجمع الكتاب 300 وصفة مشهورة، ويصنفها تحت عشرين فئة. وتلخّص كل وصفة في قصيدة قصيرة من سبع كلمات، ولكنها تتضمن اسم كل مستخلص غلي الأعشاب المستعملة فيها، والتعليمات حول كيفية صنعه واستخدامه، بالإضافة إلى معلومات أخرى مهمة حوله. وبسبب وجود هذا المحتوى الملخَّص والدقيق في الكتاب، ظل الكتاب موضع إعجاب في المجتمع الطبي.

فعلى سبيل المثال، تذكر وصفة مستخلص غلي الرجال الأربعة أن هذا المستخلص يتكون من أربع أعشاب؛ أي عشبة «جيون» وهي الجينسنغ، وعشبة





(أعلى اليمين) الصورة 3-26 الجينسنغ، دواء صيني تقليدي، معرض الصين السياحي الدولي الثامن (هايكو) (تصوير شي يان)

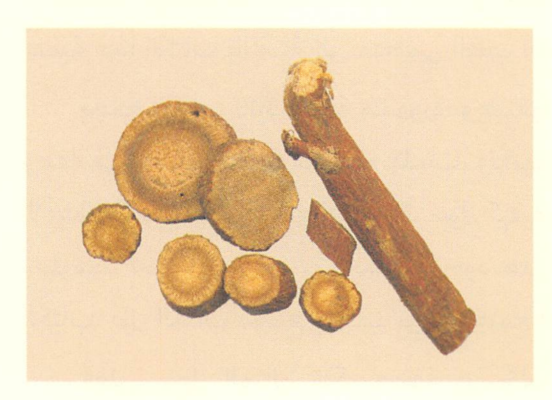


(أعلى اليسار) الصورة 3-27 الاتركتيلودس (تصوير شيوي شيوي مانغ)

هذه النبتة من العائلة النجمية طعمها مرّ وحلو.

(وسط اليسار) الصورة 3-28 لوف السهم الأخضر (تصوير شيوي شيوي مانغ)

من الفطريات متعددة الأبواغ، وهي ذات طعم حلو وخفيف.



(أسفل اليسار) الصورة 3-29 عرق السوس (تصوير شيوي شيوي مانغ)

عرق السوس نبتة بقلية، وهي وحلوة.

«تشِن» وهي الاتركتيلودس، وعشبة «تسوه» وهي فطر وولفيبوريا (التوكاهو)، وعشبة «شي» وهي عرق السوس.

وعادة، تُستخدَم هذه الوصفة لمعالجة طاقة التشي الحيوية الضعيفة في الطحال والمعدة، لذا تعتبر من الوصفات الأساسية لمعالجة هذه الحالة. ومعظم الوصفات التي طوّرها الأطباء في الأجيال التالية لعلاج تشي الطحال الضعيف مشتقة من هذه الوصفة. وإذا أضفنا إلى هذه الوصفة عشبتَي البينيليا الثلاثية وقشر البرتقال المجفف فستتحول إلى مستخلص غلي الرجال الستة، أما إذا أزلنا منها البينيليا الثلاثية فعندها سنحصل على وصفة تسمى مسحوق يي غونغ، ولهذا المسحوق أثر فعال في سد نقص طاقة التشي وتحسين صحة الطحال. وفي حال كان المريض يعاني من البرد في المعدة أيضاً، يمكن إضافة عشبة تدعى: شيانغ شا إلى الوصفة. ومن خلال 42 حرفاً صينياً فقط، تخبرنا الأغنية التي أُلّفت عن وصفة مستخلص غلي الرجال الأربعة معلومات عن أصول هذه الوصفة، والأعشاب المستخدمة فيها، كما تعطينا التعليمات اللازمة لتحضيرها. وهذا هو سحر «أشعار غلي الأعشاب» الذي أسر الأطباء منذ تأليفه! (الصور 3-26، 3-27، 3-28، 3-29، 3-30، 3-31).



الصورة 3-30 نبتة البنيليا الثلاثية (تصوير شيوي شيوي مانغ)

البنيليا الثلاثية نبتة من الفصيلة اللوفية وهي لاذعة وسامة.

الصورة 3-31 قشر البرتقال المجفف (تصوير تشن تشياو يوي)

قشر البرتقال المجفف (Pericarpium citri reticulatae) مرّ الطعم، ولاذع النكهة.



الطب الصيني التقليدي

الفصل الرابع

الطب السحري

| شن وشنغ وقونغ وتشياو - طرائق التشخيص الأربع في الطب الصيني التقليدي

إن مراقبة المريض، وشمه، والاستماع إليه، وجس نبضه هي وسائل الفحص المعتمدة في الطب الصيني التقليدي. وتسمّى هذه الطرائق وبالترتيب الذي ذكرناه: شِن - شنغ - قونغ - تشياو.

ذكر بعض الناس أن مخترع هذه الطرائق هو بيان تشيويه، ولكننا إذا رجعنا إلى كتب الطب الصيني التقليدي المرجعية الأولى فسنجد أنها دوّنت وسائل التشخيص الأربع هذه فيها. فبحسب ما ورد في كتاب «الأسئلة المباشرة»: «يتفحّص الطبيب الجيد عادة وجه المريض، ويجسّ نبضه ليتعرف على قوّتَي اليين واليانغ في جسده ويحدد مواضع المرض، وبعد ذلك يولي تنفس المريض انتباهه، ويستمع إلى صوته، وعندها يعرف ما يعاني منه، ثم يجس النبض وعندها يعرف المرض الحقيقي وسببه، وهكذا يتجنّب الوقوع في الأخطاء».

كما يصف كتاب «المحور المعجز» هذه الطرائق بوضوح أكبر؛ إذ ذكر فيه ما يلي: «انظر إلى وجه المريض لتعرف المرض وهذا يسمى مينغ، وجسّ نبضه لتعرف المرض وهذا يسمى شِن، واستمع إلى توصيف المريض للأعراض التي يشعر بها لتعرف مكان المرض وهذا يسمى قونغ». ومع أن الجملة بكاملها تتحدث عن تعريفات مينغ وشن وقونغ إلا أنها بيّنت طرائق التشخيص المرتبطة بهذه الأسماء؛ أي مراقبة المريض وجسّ نبضه والاستماع إليه. (الصورتان 4-1 و4-2).

توجد الكثير من المواد حول طرائق تشخيص الأمراض في «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني». فمثلاً في مقطع «أسئلة مباشرة - مقالة في خفايا النبض الأساسية»، يتم التركيز على أسئلة «الملاحظة والاستماع والاستفسار وجسّ النبض». وبحسب ما ذكرته مقدمة المقالة، إن طرائق التشخيص الأربع هي: مراقبة تعابير الوجه وكذلك لياقة جسد المريض، والاستماع إلى حديثه وصوته، وسؤاله عن تاريخه الطبي وحركة أمعائه في الآونة الأخيرة. كما ذُكرت فيه الأوقات المثلى التي يجدر بالطبيب فيها جس النبض، وحالاته، وكيفية معرفة النبض لدى الناس العاديين. وقد تمّ توضيح كل ذلك بلغة ساحرة وبليغة، كما تضمّن مواد



الصورة 4-1 رسم بالألوان المائية من عهد سلالة تشينغ في القرن التاسع عشر

يظهر الرسم جس نبض مريضة. وجس النبض من أهم طرائق التشخيص في الطب الصيني التقليدي.

علمية أخرى ذُكِرت في مقالات متعددة، ويمكنك من خلالها أن تدرك ثراء محتواه.

يثمّن الطب الصيني التقليدي التنسيق بين طرائق التشخيص الأربع للحصول على نتائج أكثر دقة وشمولاً. وقد قال «لي تشونغ تشي» - خبير الطب خلال حقبة سلالة مينغ - في كتابه «القراءات الضرورية لمحترفي الطب» إنّ بعض المرضى لم يفهموا ضرورة الجمع بين طرائق التشخيص الأربع، وتعمدوا إخفاء بعض الأعراض ليتأكدوا من مدى إتقان الطبيب لعمله، «إذ يستطيع بعض الحكماء القدامى أن يتوصلوا إلى حقيقة المرض من خلال مجرد جس النبض، غير أنه لا يمكنهم أن يعرفوا كل شيء بمجرد جس نبض المريض».

يعتقد ممارسو الطب الصيني التقليدي أن إصابة الإنسان بمرض باطني لا بد أن ينعكس على خارجه. وهذا المعتقد هو الأساس الذي تقوم عليه الممارسات



الصورة 2-4 «بيان تشيويه يمارس الطب» في «صور تاريخية للقديسين»، مجموعة مجسمات في رواق ثقافة تشي - لو في ساحة تشيوانتشنغ بمدينة جينان (تصوير أ قوه تشينغ).

التشخيصية؛ مثل المراقبة والاستماع والاستفسار من المريض وجس النبض. ونتيجة تراكم الخبرات والمعارف في الطب الصيني التقليدي وتطورها مع الزمن، أصبحت معرفتنا اليوم بطرائق التشخيص الأربع هذه أغنى من أي وقت مضى، حيث يستطيع الطبيب الممارس للطب الصيني التقليدي أن يتعرف على علامات المرض بمجرد الاستماع إلى صوت المريض أو ملاحظة العلامات الظاهرة على وجهه.

قد يتعرّف الناس الذين يذهبون إلى العمل كل صباح، وبالتالي يضطرون إلى الوقوف أمام المرآة كل يوم على هذه العلامات بشكل أفضل من غيرهم. فقد يلاحظون أشياء تضطرهم إلى الاعتناء بصحتهم أكثر، وقد تكون انتفاخات صغيرة تحت العينين، مترافقة مع وجه شاحب وفي ذلك دلالة على قصور في أداء الكليتين. لذا، يجب على من يعاني من هذه الأعراض أن يتناول أطعمة مفيدة للكلى مثل الجوز والسمسم الأسود والعوسج الصيني. أما الخدان المحمرّان فقد يشيران إلى ارتفاع في ضغط الدم، وإذا كان الأمر كذلك فعليك أن تقيس ضغط دمك وتخفِّف من التدخين أو تقلع عنه كلياً. إذا ظهرت بقع على وجهك فقد تكون في ذلك إشارة إلى ضعف في دورة الدم في جسمك، وإلى قصور في وظائف الكبد والطحال والكليتين. ولذلك، من الضروري لمن يعاني من هذه العوارض أن ينقي قنوات جسده وفروعها ويتحرك أكثر، ويجب أن يترافق ذلك مع التقليل من مقدار الطعام البارد الذي يتناوله، وبالمقابل يجدر به أن يتناول كمية أكبر من الأغذية التي تسد نقص وظائف الدم والكليتين. تساعد الشفتان في الكشف عن الأمراض. إذ يجب أن تكونا ورديتين، وأن يوحي مظهرهما بأنهما ملساوان وزاهيتان، أما إذا كانتا شاحبتين فقد يشير ذلك إلى إصابة الجسم بفقر الدم، وعندها يجب تناول كمية أكبر من التمر الأحمر



الصورة 4-3 العوسج الصيني، عشبة طبية صينية (تصوير لاو بيان)

العوسج الصيني هو نبتة اللساس الباذنجانية (Solanaceae Lycium)، وهي نبتة حلوة.



الصورة 4-4 التمر الأحمر (تصوير ليو جيوي)

التمر الأحمر نبتة من الفصيلة النخلية، وهو حلو المذاق.

والفاصوليا الحمراء؛ إذ إن هذين الغذاءين يقويان الدم. لكن، بالمقابل، إذا كانت الشفتان حمراوين بشكل مفرط، فربما تعاني من حرارة جسم داخلية، لذا عليك أن تتناول بعض الأطعمة التي تزيل هذه الحرارة (الصورتان 4-3 و4-4).

إن تفحّص لون بشرة المريض ولسانه وتعابير وجهه وسلوكياته من بين طرائق التشخيص الأربع، وهذه الطريقة سهلة التعلم، وفي معظم الأحيان تساعد في الوصول إلى فهم أفضل للجسم وحالاته لتقيه من الأمراض. لذلك وكي نضمن صحة أفضل لأنفسنا، علينا أن نتعلم المزيد عن هذه الوسائل التشخيصية، وخاصة «الاستماع إلى الصوت وملاحظة لون البشرة».



العلاج المرتكز على التحليل الشامل لحالة المريض يعني الوصول إلى وصفة فعالة

في «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني» سأل الإمبراطور هوانغ وزيره تشي بوه: «قد يستخدم الطبيب أكثر من طريقة لشفاء المرض ذاته، فكيف يمكن فعل هذا؟». إن هذا السؤال عميق المغزى، ويحمل في ثناياه جوهر الطب الصيني التقليدي؛ وهو علاج المريض على أساس التحليل العام لحالته.

يقول بعض الناس إن العلاج على أساس التحليل الشامل لحالة المريض هو جوهر الطب الصيني التقليدي. إذ إن تشخيص المرض بحسب الظروف الخاصة بكل شخص، وبعد ذلك توصيف علاج خاص له من خصائص الطب الصيني التقليدي الجوهرية، بل لعله أهمها.

لقد ذكر لنا كتاب «سيرة هوا توه» حالة طبية وقع فيها مسؤولان حكوميان يدعيان ني شيون ولي يان ضحية للأعراض ذاتها وفي الوقت ذاته. فقد عانى كلاهما من الصداع والحمى، ولم يظهر أي فرق بين حالتيهما، لذا ذهبا إلى الطبيب هوا توه. لكنّ هوا توه وصف لكل منهما دواء مختلفاً عن الآخر. فقد وصف لني شيون دواء يزيل عنه أعراض التعرق الغزير، في حين وصف للي يان دواء مسهلاً. وقد سُئِلَ هوا توه لاحقاً: «لماذا وصفت دواءين مختلفين للمرض ذاته؟» فأجاب: «كان ني شيون يعاني من متلازمة إفراط خارجي، أما لي يان فكان يعاني من متلازمة إفراط داخلي؛ وكل من المرضين مختلف عن الآخر، مما يعني أن طريقة علاج كل منهما مختلفة عن الأخرى». وتعكس هذه الحالة الطبية بحق الصفات التي تميز العلاج المبني على تحليل حالة المريض في الطب الصيني التقليدي (الصورة 4-5).

يشمل العلاج المبني على أساس التحليل العام لحالة المريض جانبين: الأول تمييز أعراض المرض، والثاني معالجة المرض. إن تمييز الأعراض عبارة عن عملية تحليل للمرض للتعرف إليه. ومن الضروري هنا تسجيل الأعراض والعلامات وبيانات المريض الصحية الأخرى التي يتم التوصل إليها باعتماد طرائق التشخيص الأربع، وبعد ذلك يجب تحليلها كي يتمكن الطبيب من تحديد طبيعة المرض ومركزه في الجسم وطريقة عمله في الأعضاء.



الصورة 4-5 صورة ملونة للطبيب فائق المهارة هوا توه وهو يعالج جروح قوان يوي، ممر شان شي المزين في قاعة نقابة شنشي وقانسو، كايفنغ، مقاطعة خنان (تصوير نيي مينغ)

بحسب ما يقوله الطب الصيني التقليدي، بعد المراقبة والاستماع والاستفسار وجس النبض، يعالج الطبيب المريضَ على أساس الأعراض الخاصة به. وتعتبر صورة هوا توه وهو يعالج جروح قوان يوي من أفضل الصور التي تعرض التشخيص والعلاج على أساس الطب الصيني التقليدي.

تتمّ معالجة الأمراض بناء على التمييز بين أعراضها. فبعد تحديد الأعراض، يقرِّر الطبيب طرائق العلاج المناسبة، ويعدِّل الوصفات العشبية بحسب متلازمات الأعراض المختلفة. ولهذا، إن تمييز أعراض المرض هو أساس العلاج. والعلاج المرتكز على التحليل الشامل لحالة المريض هو الرابط بين علاقات الجسد الداخلية وتطور نوع المرض الذي أصيب به. وهذه الطرائق بالطبع تختلف تمام الاختلاف عن العلاج التشخيصي للأعراض وأسس التفرقة بين الأمراض التي يقوم عليها الطب الغربي.

إذا أصيب أحد ما بزكام عادي، فسوف يصف له الطبيب الغربي أدوية تخفِّض درجة حرارته، ومسكنات، ومضادات للسعال، وأدوية أخرى بناء على الأعراض التي يمر بها المريض؛ سواء أكانت ارتفاعاً في درجة الحرارة أم ألماً في الرأس أم سعالاً. لكنّ ممارسي الطب الصيني التقليدي لا يتبعون هذه الطريقة المعيارية، بل يصنفون الزكام إلى زكام ناجم عن برودة الهواء، وزكام ناجم عن سخونة الهواء،



وزكام ناجم عن رطوبة الصيف؛ وذلك بحسب موسم السنة والأعراض التي تظهر على المرضى.

أعراض الزكام الناجم عن برودة الهواء تشمل ارتفاع درجة الحرارة، ووجع الرأس، والشعور بما يشبه الحكة في الحلق، وانسداد الأنف. أما أعراض الزكام الناجم عن سخونة الهواء فتشمل درجة حرارة مرتفعة، ووجعاً متزايداً في الرأس، والتهاباً في الحلق، وبعض التعرق، وخروج نخامة صفراء مترافقة مع السعال. في حين أن أعراض الزكام الناجم عن رطوبة الصيف تشمل ارتفاعاً في درجة حرارة



الصورة 4-6 الأدوية الصينية التقليدية المستخدمة في علاج الزكام: حبوب الصويا المخمرة التي لا طعم لها، والمديد الأسود، وبلاتيكودون كبير الأزهار، والشيح، وعرق السوس.



الصورة 4-7 أدوية صينية تقليدية للزكام: أوراق وسمة الصباغين (folium isatidis)، وخشارة زيز الحصاد، وعرق السوس.

الجسم، وبعض التعرق مع الشعور بثقل وربما ألم في الأطراف، كما تشمل الشعورَ بالدوار وألماً متزايداً وسعالاً مع بلغم لزج ورشحاً أنفياً كدر اللون، ويكون المريض أيضاً سهل الانزعاج وكثير العطش إذا أصيب بهذا النوع من الزكام، كما يكون التبول قليلاً وداكن اللون، بالإضافة إلى المزيد من الأعراض. ونتيجة لوجود هذه الأنواع المختلفة من الزكام، لا بد أن تتباين طرائق علاجها، والوصفات المستخدمة لمعالجة كل منها (الصورتان 4-6 و4-7).

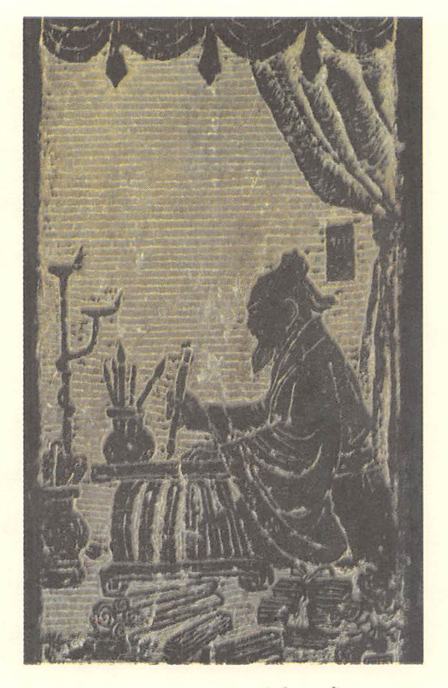
تعود طرائق المعالجة المبنية على التحليل الشامل لحالة المريض في الطب الصيني التقليدي إلى زمن بعيد. وقد كان هذا النظام قد تشكل بالفعل في زمن تأليف «الكتاب المرجعي في الطب الباطني»؛ إذ لخّص الكتاب كيفية تشخيص الأمراض ومعالجتها كعملية تبدأ بدراسة أسباب الأمراض، وتحليل مواضع الجسم التي تتمركز فيها، وتحديد طبيعة أعراضها المتلازمة، وأولوياتها، وتغيراتها الديناميكية، وبعد ذلك كله يقرر الطبيب العلاج الأمثل للحالة الماثلة أمامه استناداً إلى كل ما توصل إليه.

كانت مميزات العلاج المعتمِد على التحليل الشامل لحالة المريض في تلك الفترة معقدة للغاية. فمنذ زمن الطبيب تشانغ تشونغ جينغ الذي عاش في حقبة سلالة هان، بنى الكثير من الأطباء على الأسس التي أرساها «الكتاب المرجعي في الطب الباطني»، فجمعوا خبراتهم النظرية والعملية، وأجروا أبحاثاً عميقة على طرائق تمييز مختلفة مثل القنوات الست، وي وتشي وينغ وشيويه، والمبادئ الثمانية، والأعضاء الداخلية ومقويات الطاقة الثلاثة وغيرها. وقد استمر الأطباء في إثراء ممارساتهم، حيث أصبحت مبادئ تمييز أعراض الأمراض مستقلة عن النظام الشامل الذي بيّنه «الكتاب المرجعي في الطب الباطني».

كان أول من تقدّم بطريقة تمييز الأمراض المسماة «بالقنوات الست» هو تشانغ تشونغ جينغ في كتابه «رسالة في الأمراض الحمية والمتنوعة»، والقنوات الست هي: تاي يانغ، يانغ مينغ، شاو يانغ، تاي ين، شاو ين، جيويه ين، وتسمى أيضاً: «قنوات يين الثلاث، وقنوات يانغ الثلاث». وما تتميز به هذه الطريقة هو أنها تقدّم وسائل علاج مختلفة من خلال تصنيف الأعراض المتلازمة المختلفة التي

تظهر على المريض المصاب بأمراض حمِّية خارجية المنشأ إلى ثلاث متلازمات من فئة يانغ، وثلاث من فئة يين؛ بحسب طبيعة كل متلازمة (الصورة 4-8).

أما طريقة تمييز الأمراض من خلال وي وتشي وينغ وشوي فهي مبنية على القنوات الست؛ وخاصة في ما يتعلق بالأمراض الحمية خارجية المنشأ، وتمثّل مراحل متلازمات الأعراض الأربع، وتستخدم لوصف شدة الحالات ومواضعها والتغيرات فيها خلال مراحلها المختلفة والقوانين التي تحكم تغيرات المرض؛ فيقع تطور الأمراض الحمية الوبائية ضمن هذه المراحل الأربع: وي، وتشي، ويينغ، وشوي. المرحلتان الأوليان ليستا خطيرتين بعد، أما المرحلتان الأخيرتان فيعني الوصول إليهما أن الحالة مستفحلة وشديدة.



الصورة 4-8 «ألّف كتاباً وأنشئ نظرية» من «صور تاريخية لتشانغ تشونغ جينغ»، معبد قديس الطبابة، مدينة نانيانغ، مقاطعة خنان (تصوير نيي مينغ)

تُظهِر هذه الصورة تشانغ تشونغ جينغ وهو يؤلّف كتابه «رسالة في الأمراض الحمية والمتنوعة».

يُسمّي الطب الصيني التقليدي الحمى المعدية بالمرض الحمّي الوبائي. والإصابة بمرض كهذا تعني عادة البداية بأعراض حادة، ثم تطور المرض بسرعة، والتعرض لتغييرات كثيرة. وتعتبر أمراض كثيرة معدية مثل الزكام العادي، والإنفلونزا، والحصبة، والتهاب الرئتين، والتهاب السحايا، والتهاب الدماغ، وحمى التيفوئيد، والحمى النزفية الفيروسية، وغيرها من بين الأمراض الحمية الوبائية. ويقوم ممارسو الطب الصيني التقليدي بتشخيص هذه الأمراض ومعالجتها من خلال وي وتشي وينغ وشوي.

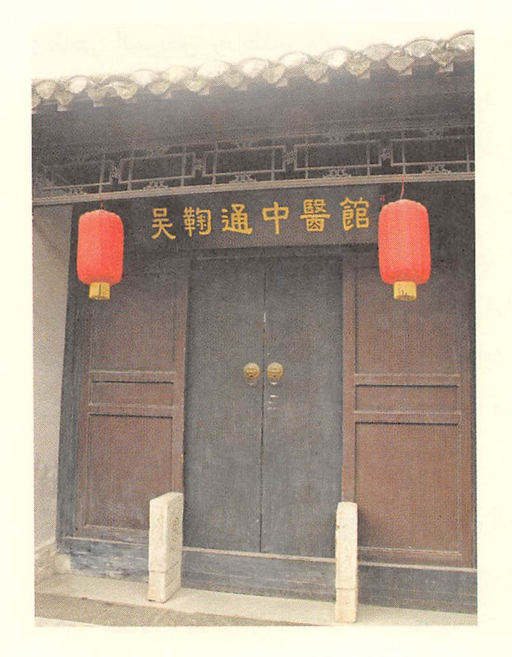
أما طريقة تمييز الأمراض القائمة على المبادئ الثمانية فهي أكثر الطرائق بساطة، وتعتبر برنامجاً عاماً لتمييز أعراض الأمراض. وهي تشمل اليين واليانغ،

وظاهر المريض وباطنه، والبرودة والسخونة، والنقص والإفراط. وتستخدم هذه الطريقة نظرية المبادئ الثمانية لإجراء تحليل موسع للمعلومات الطبية التي يحصل الطبيب عليها من خلال طرائق التشخيص الأربع التي ذكرناها سابقاً؛ وذلك ليتعرف على طبيعة الأمراض، وتصاعد الخير والشر ونزوله في الجسد، وفئات المرض؛ وهي ما يلخّصه الأطباء الصينيون التقليديون في فئات متلازمات يين ويانغ، والظاهر والباطن، والبرودة والسخونة، والنقص والإفراط. فعلى سبيل المثال، حين يشكو المريض من ألم في الرأس علينا في البداية أن نحدد طبيعة وجع الرأس، وهذا مبني على معرفة النقص أو الإفراط، وما إذا كان سببُ الوجع شراً خارجي المنشأ أو آفة في الأعضاء وهكذا دواليك...

أما وسيلة تمييز الأمراض المبنية على المطياقات[1] الثلاثة فقد كان وو جيوي تونغ - وهو طبيب من حقبة سلالة تشينغ - أول من استخدمها، وقد تحدّث عن كيفية معالجة الأمراض الحمية من خلال نظرية تقول بوجود ثلاثة مقويات للطاقة في الجسد: مطياق علوي، وآخر وسطي، وآخر سفلي؛ وتتلخص في مفهوم مواضع المطياقات الثلاثة المذكورة في «الكتاب المرجعي في الطب الباطني»، وعلى أساس تناقل الأمراض الحمية وقانون التغير.

تركّز هذه الطريقة على التغيرات المرضية في الأعضاء الداخلية التي تقع ضمن نطاق كل من المطياقات الثلاثة أثناء تطور المرض الحمّي، بالإضافة إلى سمات ملازمة الأعراض وقانون تناقلها وتغيرها. وتقوم نظرية تمييز الأمراض هذه على معتقد يقول إن الأمراض تبدأ عادة بالمطياق العلوي - أي الرئة - وبعد ذلك تنتقل إلى المطياق الأوسط - الطحال والمعدة - ثم تدخل أخيراً المطياق السفلي؛ أي الكبد والكليتين. ولكن، بما أن الأمراض الحمِّية تصنَّف تحت فئات سخونة الهواء، ودفء الربيع، وحرارة الصيف، وجفاف الخريف، وأمراض موسم الحر والأوبئة، تتباين القوانين التي تحكم حصولَ هذه الأنواع المختلفة من الأمراض وتناقلَها وتغيّرَها. فعلى سبيل المثال، حين تظهر لنا متلازمة أعراض لمرض نجَم عن حر الصيف فقد تتمركز هذه المتلازمة في المطياق الأوسط. وبالإضافة إلى ذلك،

(1) المطياق: مصدر الطاقة [المترجم].



الصورة 4-9 عيادة الطب الصيني التقليدي في وو جيوي تونغ، بلدة خشيا العريقة، إقليم تشوتشو، مدينة هوايآن، مقاطعة جيانغسو .

يمكن لمتلازمات أعراض المطياقات الثلاثة أن تتداخل. فمثلاً، في معظم بدايات حالات الإصابة بأمراض حمِّية، يُظهِر المطياقان الأعلى والأوسط أعراض المرض في الوقت ذاته (الصورة 4-9).

لنأخذ على سبيل المثال تفشي مرض السارس في الصين. فبحسب أعراض مرض السارس السريرية، هو ينتمي إلى فئة الأمراض الحمية، ولذلك يتعامل الطب الصيني التقليدي مع علاجه على أنه يجب أن يؤسس على «تخفيض حرارة الجسد، وطرد الشر منه، وتنقيته من السموم، ومنع ركود الدم».

وقد أثبت الطب الصيني التقليدي بالفعل مقدرته على علاج الحمى التي يؤدي إليها هذا الفيروس، مما أدى إلى خفض عدد الوفيات الناجمة عنه. وقد كان تدخل هذا الطب لشفاء الناس من الفيروس القاتل وكأنه أعجوبة خفية مرت مرور الكرام، غير أنّ مجلة «Asia Week» الصادرة عن هونغ كونغ تحدّثت بعمق عن عظمة مقدرة الطب الصيني التقليدي في تلك الأزمة، وخصّت هذا الموضوع بتغطية واسعة.

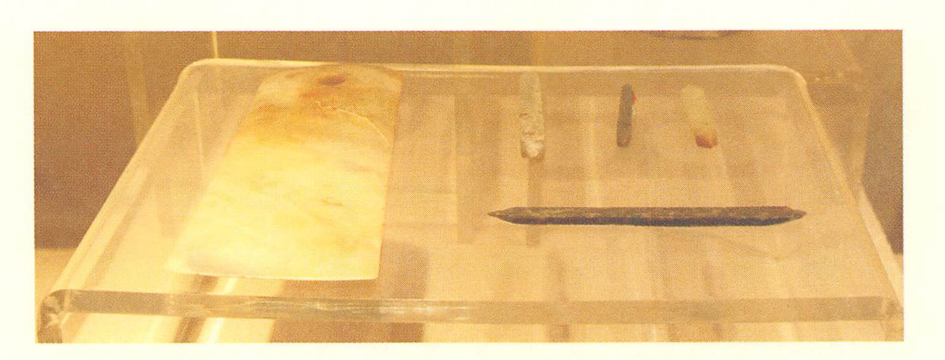
من الإبرة الحجرية إلى التمثال البرونزي

ما هي الإبرة الحجرية؟ بحسب كتاب «الكلمة والتعبير» الذي ألّفه شيوي شن خلال حقبة سلالة هان: «تعني كلمة بيان شفاء المرض باستعمال إبرة حجرية». كما ذكر لنا كتاب «كتاب الجبال والبحار المرجعي - الكتاب المرجعي في الجبال الشرقية» ما يلي: «يوجد الكثير من الجاد والكثير من حجارة الإبر تحت الأقدام». وقد بيَّن لنا قوه بو الذي عاش في زمن سلالة جين أن هذه الحجارة يمكن تحويلها إلى إبر حجرية لشفاء أمراض التضخم والانتفاخ، وقال فو زي شِن: «رأت بعض الأجيال أن هذه الحجارة ليست جيدة بما فيه الكفاية لصنع الإبر الحجرية، ولذلك صنعت الإبر من الحديد». وهكذا، نرى أن بيان كلمة تشير إلى الإبرة الحجرية التي كانت تستخدم كأداة للوخز الطبي، وأنها اختُرِعَت قبل ظهور الإبر الحديدية (الصورة 4-10).

وقد سجّل كتابا «الأسئلة المباشرة» - الكتاب المرجعي في الطب التقليدي الذي أشرنا إليه مراراً - و«المحور المعجز» استخدامَ الإبر الحجرية في معالجة تقرحات الدمامل. وبحسب كتاب «السجلات التاريخية - سيرة حياة بيان تشيويه»، قال بيان تشيويه أثناء معالجته للنبيل الصيني تشي هوان: «بالنسبة إلى الأمراض المتمركزة في الخطوط العصبية والمساحات بين تجاويف الجسم، يمكننا شفاؤها من خلال مستخلصات غلي الأعشاب والكي. أما الأمراض المتمركزة في الدم نفسه فبحاجة إلى إبر حجرية لمعالجتها بفعالية» (الصورة 4-11).



الصورة 4-10 علاج الأمراض عبر الوخز بالإبر، من «صور تاريخية لتشانغ تشونغ جينغ»، معبد قديس الطبابة، مدينة نانيانغ، محافظة خنان (تصوير نيي مينغ)



الصورة 4-11 إبرة حجر الجاد، تم استخراجها من قرية داتشوجيا، محافظة جيويشيان، مقاطعة شاندونغ، متحف جيويشيان (تصوير أ قوه تشينغ)

وقد وجد الباحثون مؤخراً أن ما تشير إليه المصادر الصينية القديمة «بالأجراس العائمة من سيبين» إنما هو الإبر الحجرية. فقد كانت منطقة سيبين في الأصل مكاناً لصناعة آلة بيان تشينغ الموسيقية؛ وهي مجموعة أجراس حجرية تدق ببعضها بعضاً فتصدر أصواتاً مختلفة ولكنها متناغمة. وفي سنة 1978، اكتشف الباحثون مجموعة من «أحجار سيبين الرنانة» التي تعود إلى حقبة «الربيع والخريف» في التاريخ الصيني القديم في منطقة تنغتشو في محافظة شانغدونغ. وتتألف مجموعة الأجراس المكتشفة من 13 جرساً حجرياً. وللأسف، كان اثنان منها قد تعرضا للتلف. ولكن، سرعان ما حصلنا على تعويض عن هذه الخسارة؛ إذ تم العثور على مجموعة أخرى من الأحجار المشابهة لها في قبر يعود إلى زمن سلالة مينغ. وفي الفترة ذاتها التي تم فيها العثور على «أجراس سيبين العائمة»، تم العثور بالصدفة على أداة وخز طبية قديمة سميت «حجر بيان» أو الإبرة الحجرية.

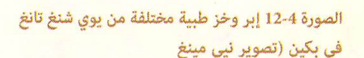
يمكننا تحويل حجارة سيبين الرنانة إلى أدوات للوخز، وتوجد 16 طريقة في الوخز. وقد وجد فريق من الباحثين أن «الأجراس العائمة» حجارة غير ناشطة إشعاعياً، ولا تسبّب أي أذى للجسم البشري، كما أنها محاطة «بحقل طاقة غريب». وتتبع قنوات الجسد وفروعها، كما أنها تسرع من تدفق الدم في الأوعية والشعيرات الدموية الصغيرة حين تلامس جلد الإنسان.

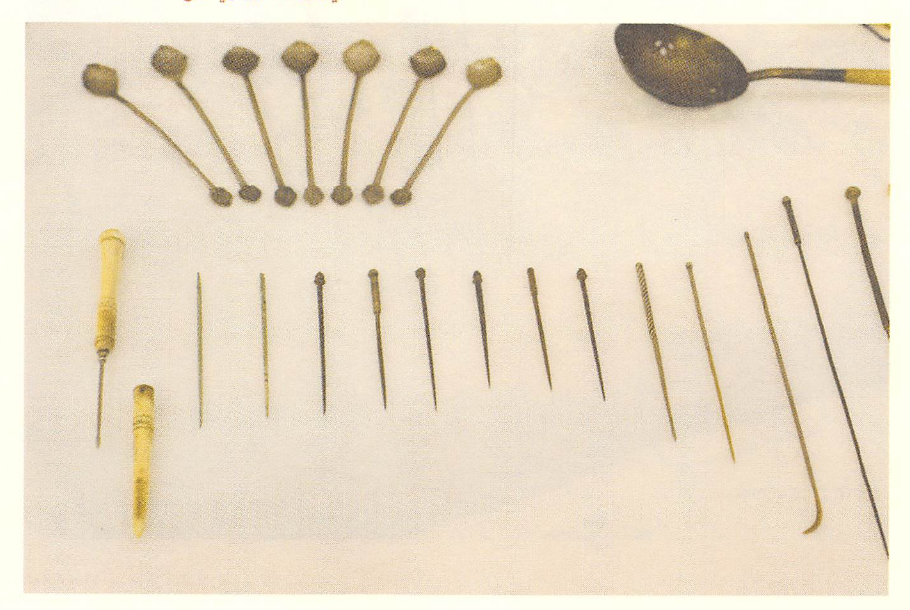
تحتوي الإبر الحجرية على كمية قليلة جداً من حوالي ثلاثين عنصراً جميعها

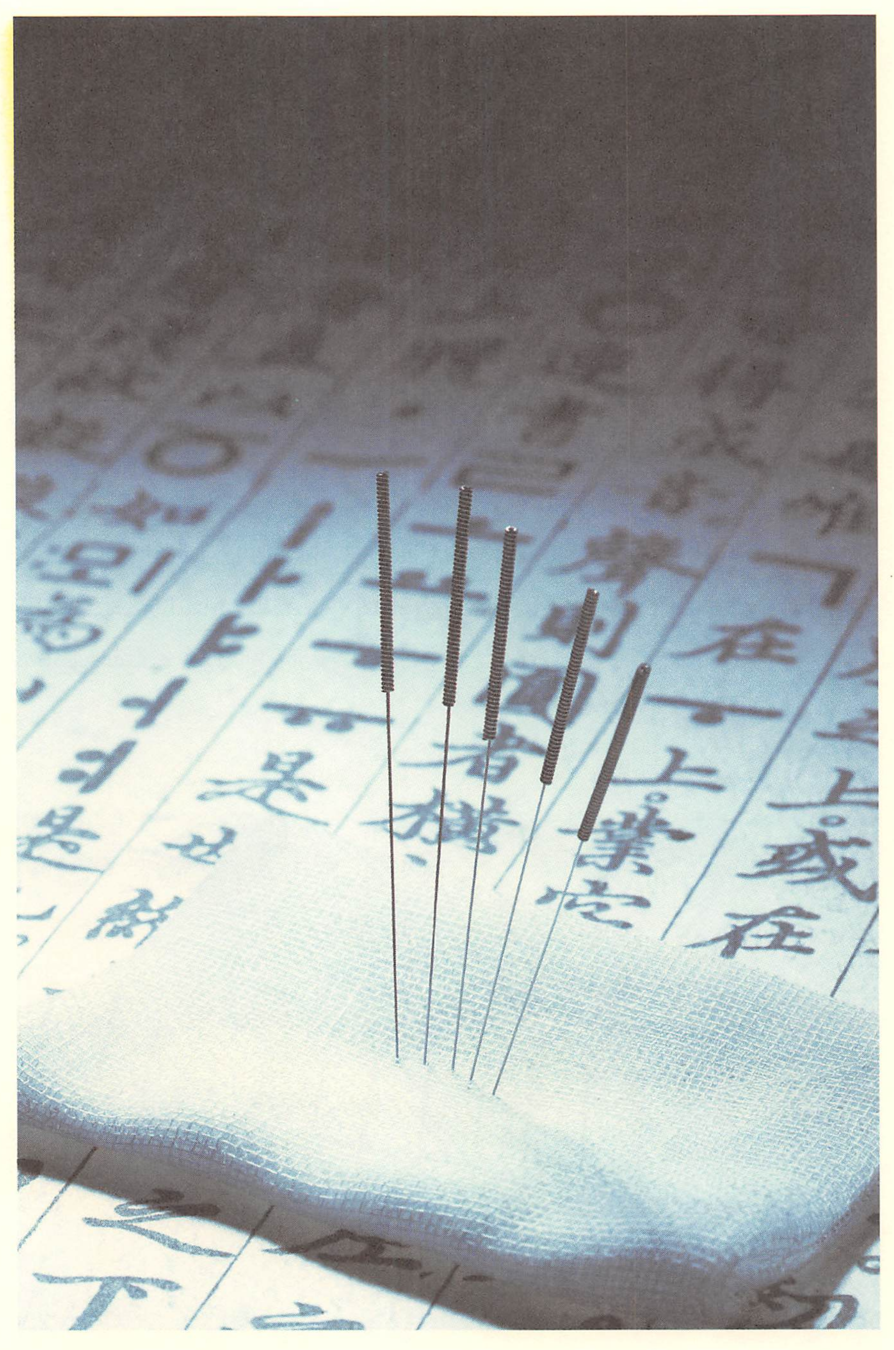
نافعة للجسم البشري، ويعتبر السترونتيوم أكثر هذه العناصر تركيزاً، وبالإضافة إلى ما ذكرناه، من الممكن استخدام «أجراس سيبين العائمة» في صناعة أدوات طبية أخرى؛ مثل صحون السحج والمحادل والأكواز الحجرية وغيرها... بل ويمكن استخدامها أيضاً في صنع «مجوهرات صحية» مثل الأمشاط والقلادات والأساور الحجرية، بل ويمكن صنع وسائد حجرية منها!

إذاً، بدأ الوخز الطبي باستعمال الإبر المصنوعة من حجارة «بيان» هذه، وبعد ذلك تطور واستُخدِمت الإبر المعروفة اليوم فيه، كما تطوّرت المواد المستخدمة في صناعة الإبر من الحجارة إلى الخيزران فالخشب فالعظام فالبرونز فالحديد فالذهب فالفضة.

وخلال عملية تطوّر أدوات الوخز الطبي بالإبر تطورت معها إحدى أهم الأدوات المرافقة لهذا الفن؛ أي «التمثال البرونزي للوخز بالإبر والكي»، وهو تمثال ظل يستخدم لمئات السنين لاختبار هذه الوسائل الطبية، وقد أدى إلى وضع معايير حقيقية فيها (الصورتان 4-12 و4-13).


الصورة 4-12 إبر وخز طبية مختلفة من يوي شنغ تانغ في بكين (تصوير نيي مينغ





الصورة 4-13 إبر الوخز الطبية (تصوير لاو بيان)

كان وانغ وي يي المسؤولُ الطبي خلال حقبة سلالة سونغ الشمالية أول من صمم «التمثال البرونزي للوخز بالإبر والكي»، والذي يُشار إليه في بعض الأحيان «بـالتمثال البرونزي» اختصاراً. وقد نفّذه حرفيون صينيون بأوامر من الأجهزة الإدارية الإمبراطورية. لقد كان وانغ وي يي طبيباً مشهوراً في زمانه، وخدم كطبيب الإمبراطور الخاص خلال فترتي حكم الإمبراطورين رنتسونغ وينغ زونغ.

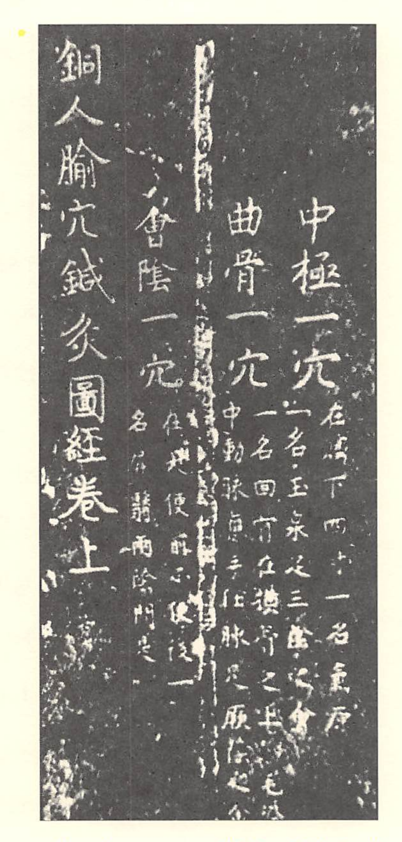
قبل حقبة سلالة سونغ الشمالية، كان الأطباء يقدمون العلاج لمرضاهم من خلال الوخز بالإبر اعتماداً على خبراتهم الخاصة وفهمهم للكتب الطبية التي تتحدث عن ذلك الفن. ولكن لم تتوفر لديهم معايير موحدة بالنسبة إلى نقاط الوخز؛ مما كان يؤدي إلى ارتكاب بعضهم الأخطاء. وقد جعل هذا الواقع التوصل إلى معيار موحد ضرورة قصوى. وبالفعل، أمر الإمبراطور رنتسونغ - من سلالة سونغ - الكلية الطبية التي كانت الحكومة الإمبراطورية تديرها والهيئة الطبية العليا في البلاد، بأن تدوّن «معايير أشكال نقاط الوخز بالإبر الجديدة». وبالفعل، وبعد ثلاث سنوات، تمكّن وانغ وي يي من استكمال المعايير الوطنية الجديدة لنقاط الوخز بالإبر والقنوات الجسدية وفروعها. ولم يوحِّد هذا الإنجاز معايير الأطباء في هذه المجالات فحسب، بل دفعهم إلى القيام ببحث أكثر تفصيلاً حولها. ولتسهيل حفظ ما توصلوا إليه، نقش وانغ وي يي ما أُجمِع عليه في أشكال مرسومة على خمسة نصب حجرية.

لكن الإمبراطور رنتسونغ كان يعتقد أن التجربة المباشرة أهم من الكتابة، ولذلك أمر بصب التمثال البرونزي بحسب ما ذكر كتاب «معايير أشكال نقاط الوخز بالإبر الجديدة»، فتم صب تمثالين في ذلك الوقت، وبعد ذلك سمي كل منهما: «التمثال البرونزي للوخز بالإبر والكي من عهد سونغ تيان شنغ». (الصور 4-14 و4-15).

يبلغ طول «الرجل البرونزي» حوالي 1.73 متراً، وينتصب مستقيم القامة، وكل من راحتَي يديه مواجهة لإحدى ساقيه. يرتدي كل من هذين التمثالين سروالاً قصيراً ويضع حزاماً، وقد حفر على رأس كل منهما شكل شعر الرأس المكلل بتاج. وقد جمع الجسد بأكمله في جزءين يمكن فصلهما عن بعضهما بعضاً.



الصورة 4-14 حجر حُفِرت عليه عبارة «استعراض الوخز بالإبر والكي على تمثال برونزي منحوت حديثاً» من حقبة سلالة سونغ، وهو غير مكتمل.

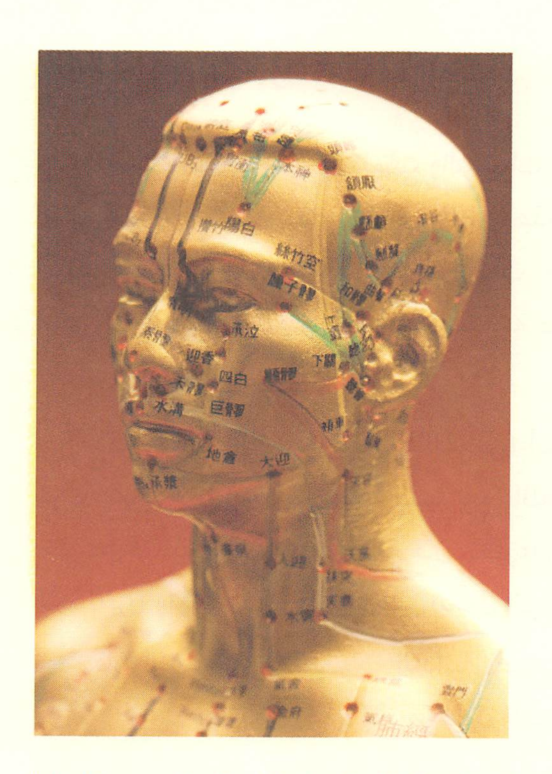


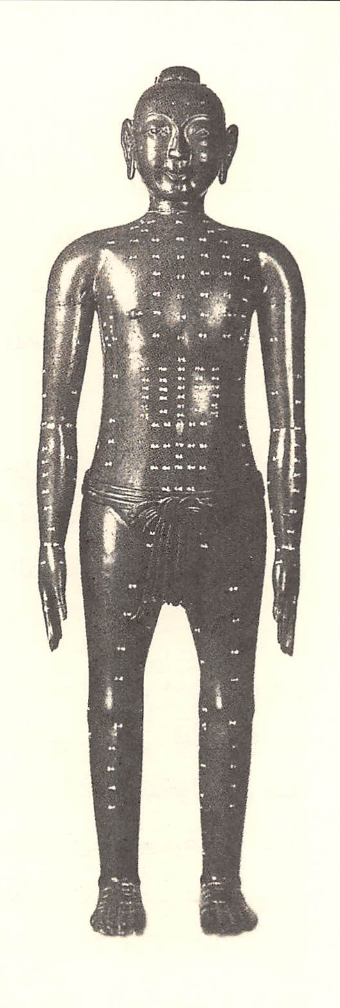
الصورة 4-15 محكوكات من حجر محفور عليه: «استعراض الوخز بالإبر والكي على تمثال برونزي» من حقبة سلالة مينغ.

وضعت 657 علامة على كل تمثال برونزي، وقد اعتبرت كل نقطتين متقابلتين كنقطة واحدة للوخز بالإبر، مما أعطانا في الحصيلة النهائية 354 نقطة للوخز بالإبر، وجميع النقاط تحتوي على ثقوب صغيرة.

وبحسب ما دوّنه تشو مي في كتابه «ما يقوله العامة شرق تشي»: «صنعت التماثيل البرونزية من النحاس المنقى، وقد كُتب اسم كل نقطة للوخز بجانب مكانه الصحيح». كما ذكر هذا الكتاب أن هذه التماثيل كانت تستعمل كنماذج للتعلم ووسائل لاختبار الأدوات الطبية.

رغم أن أسماء نقاط الوخز كانت محفورة على التمثال نفسه إلا أنها كانت مغطاة بالشمع، حيث لا يتمكن الطلاب من رؤيتها. وبدلاً من ذلك، كان عليهم أن يعتمدوا على ما تعلموه وحفظوه. كما كانت





(اليمين) الصورة 4-16 تمثال برونزي للوخز بالإبر والكي مصنوع كتقليد لتمثال برونزي من عهد سلالة سونغ، ويبلغ طوله 213 سم.



(الأعلى) الصورة 4-17 نموذج لتمثال برونزي للوخز بالإبر والكي

نقاط الوخز الصحيحة تملأ بالزئبق، حيث إن الطالب إذا قام بوخز النقطة الصحيحة فإن الزئبق سيتدفق من التمثال البرونزي. (الصورتان: 4-16 و4-17).

لا يزال مكان تمثالي البرونز الأصليين غامضاً. فقد أظهرت بعض الأبحاث أنهما شحنا إلى متحف الإرميتاج في سانت بطرسبرغ في روسيا، فيما تقول أبحاث أخرى إنهما موجودان في متحف في طوكيو في اليابان. وبغض النظر عن مكانهما الحالي، فالاهتمام الكبير بهما يظهر السحر الذي اجتذب به فن الوخز الطبي بالإبر الاهتمام العالمي، والإسهامات العظيمة التي قدمتها الحضارة الصينية للعلوم الطبية.

| اختراع النبيذ واستخدامه الطبي

بحسب المذكور في «الكلمات والتعبيرات»، يرتبط الحرف الصيني التقليدي الذي يشير إلى النبيذ بشفاء الأمراض، فيُظهر هذا الحرف علاقة وطيدة بين كلمتي «نبيذ» و«طبيب». وبحسب كتاب «حوليات هان»: «من بين الأدوية الكثيرة المعروفة، النبيذ أفضلها، والكمية المناسبة منه ضرورية».

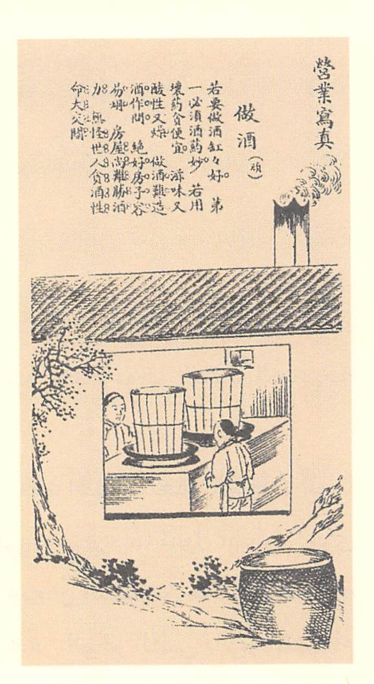
كيف اختُرِع النبيذ؟

ذكر جيانغ تونغ (من عهد سلالة جين) أصل شرب النبيذ في كتابه «آداب شرب النبيذ» فقال: «بدأت صناعة النبيذ مع عائلة ملكية. ويُقال إن يي دي أوّل من اخترعه، كما يُقال أيضاً إن دو كانغ كان مخترعه. في البداية، كانت بقايا محصول الأرز تخزن وتخمر لفترة طويلة حتى تتحول إلى نبيذ».

كان النبيذ في المجتمعات البدائية يصنع من خلال تخزين ما يتبقى من محصول التوت والحبوب في قدور، وبعد الشتاء كانت محتويات القدور تتحول إلى نبيذ بعد تخمّرها. أما الطرائق الصناعية في صنع النبيذ فلا توجد معلومات مؤكدة عن أصولها، ولكن الناس في العصور القديمة كانوا يميلون إلى نِسبَة أصل أي عمل إلى مخترع واحد (الصورة 4-18).

وقد وردت عدة أساطير حول مخترعي النبيذ:

تقول إحدى هذه الأساطير إن يي دي هو أول من صنع النبيذ. وبحسب هذه الأسطورة، حدث ذلك خلال حقبة يو في زمن سلالة شيا. ويذكر «كتاب حوليات لو عن الربيع والخريف» أن «يي دي صنع النبيذ». أما كتاب



الصورة 4-18 مصنع ينتج الخمر في عهد سلالة تشينغ



الصورة 4-19 مخترع النبيذ دو كانغ، صورة جدارية في قاعة جيولونغ عند بوابة لي جينغ، مدينة لويانغ، محافظة خنان (تصوير نيي مينغ)

«استراتيجيات الممالك المتحاربة» فقد قدّم لنا تفاصيل أكثر: «بعد أن شرب يو النبيذ الذي صنعه يي دي وجد أنه حلو بالفعل، ولكنه توقع أن ترى الأجيال التالية أباطرة يهزمون ويخسرون ممالكهم بسبب ضعفهم أمام النبيذ».

وذُكِر في أسطورة أخرى أن دو كانغ كان أول من خمَّر النبيذ. ففي كتاب «الكلمات والتعبيرات»، وفي المكان الذي يتحدث عن الحرف الصيني المشير إلى «النبيذ»، ذُكِر أن دو كانغ صنع نبيذاً من الذرة البيضاء، وقد تكرر هذا القول في قصيدة كتبها الشاعر كاو كاو في «قصيدة قصيرة بأسلوب الأغاني»، إذ قال في أحد الأبيات: «فقط دو كانغ يمكنه أن يزيل الأحزان»، مما يعني أنه رأى أن دو كانغ كان مخترع النبيذ الأصلي. (الصورة 4-19).

اعتقد آخرون أن صناعة النبيذ بدأت في زمن الإمبراطور هوانغ، فقد ورد في كتاب «الأسئلة المباشرة» أن الإمبراطور هوانغ ناقش موضوع التخمير مع تشي بوه. أما أكثر الأقاويل جنوحاً إلى الأساطير فهي ما تداوله البعض عن إله للخمر كان أول من صنع النبيذ، وأن تاريخ النبيذ قديم بقدم العالم نفسه. ورغم تباين



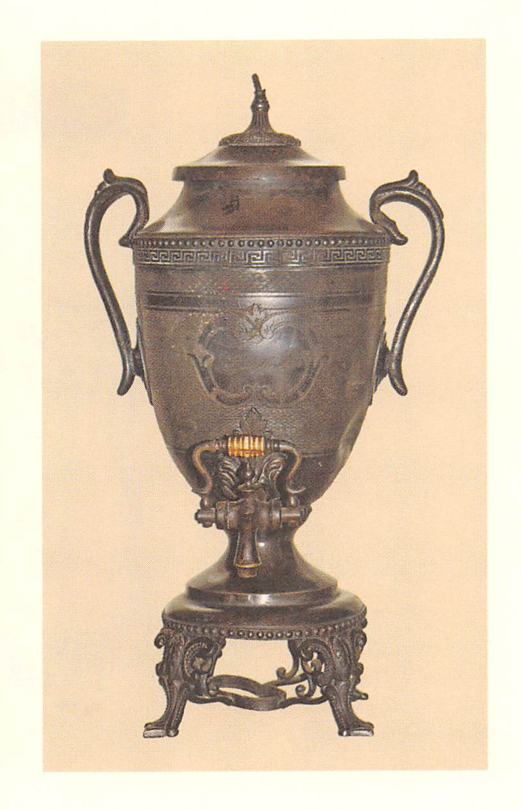
هذه الأساطير فهي تعطينا فكرة عن أن التخمير كان موجوداً حتى في حقبة سلالة شيا (أي حوالي 2000 قبل الميلاد)، وقد أكد علماء الآثار هذه الحقيقة؛ إذ اكتشفوا معدات للتخمير، مما يعني أن التخمير الصناعي كان موجوداً حتى قبل أربعة آلاف سنة (الصور 4-20، 4-21، 4-22).

لقد كان استعمال النبيذ بهدف الاستشفاء من اختراعات الطب الصيني التقليدي. وقد احتوى كتاب تشانغ تشونغ جينغ «رسالة في الأمراض الحمية والمتنوعة» 21 وصفة تحتوي على النبيذ. وتشمل طرائق تحضير هذه الوصفات طهي الأعشاب بالنبيذ، أو تناولها معه، أو تغميسها فيه، أو غسلها به.

يبحث كتاب «الأساسيات الصحيحة لطعام الإمبراطور وشرابه» الذي ألّفه هو سي هوي خلال فترة سلالة يوان في الوصفات المناسبة للبلاط الإمبراطوري خلال فترة حكم تلك السلالة، ويعتبر من النصوص الأولى حول علوم التغذية والصحة في الصين القديمة. وورد في الكتاب ما يلي: «يمكن أن يقتل النبيذ الطبي ألف شر، وأن ينقي الدم، ويقوي المعدة، ويزيل الحزن». وهذا يعني أن النبيذ قادر على تحسين فعالية الأدوية، وعلى قيادتها إلى مواضع الأمراض، كما أنه يقتل السموم وينقي الدم والقنوات ويفتح الشهية.

اعتقد لي شي تشن أن شرب النبيذ باعتدال قد يفيد الصحة، وقد سجّل «الموجز في المواد الطبية» عدداً من استخدامات النبيذ بما منها تعقيم الأدوية، وشربها معه، وطهي الدواء به، وتغميسه فيه، وغير ذلك. وقد سجّل الكتاب أكثر من 200 نوع من النبيذ الطبي؛ منها نبيذ قشر الأكانتوباناكس الذي يمكنه أن يُخلّص من جميع أنواع الشلل الروماتيزمي ويقوي العظام، ونبيذ زهرة العقداء الذي يمكنه أن يقوي العظام أيضاً ويساعد طاقة الجسم الحيوية ويشفي الكثير من الأمراض. في حين أن نبيذ الجينسنغ يمكنه أن يعزز طاقة التشي ويشفي الجسم وغير ذلك.

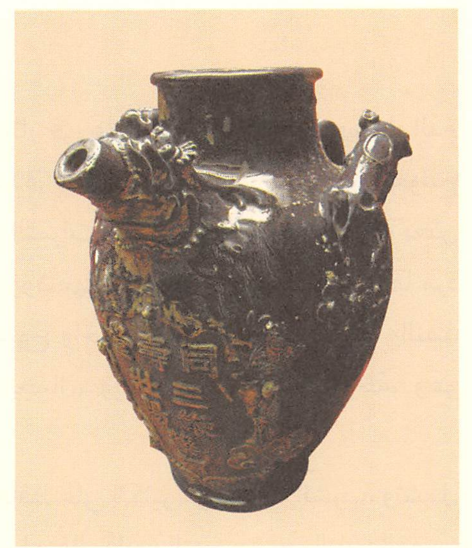
في زمن سلالتي مينغ وتشينغ ازداد عدد أنواع النبيذ الطبي المقوي بشكل كبير، كما أصبح الأطباء يميلون إلى الحذر في وصف التي تحتوي على النبيذ، ومالوا إلى استخدام الأدوية المعتدلة، وقد أدى هذا إلى ازدهار صناعة النبيذ الدوائي. فثمار العوسج الصيني مثلاً حلوة الطعم، والأدوية المستخرجة منها مفيدة للكلى.

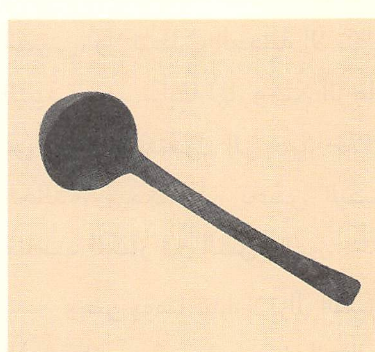


(أعلى اليسار) الصورة 4-20 قدر قديمة تستخدم لتخمير النبيذ، متحف قويا في تيانجين (تصوير لي ينغ)

(أسفل اليسار) الصورة 4-21 قدر خمر استخدمها الأطباء من تونغ شو تانغ، قاعة عرض تاريخ وحضارة قوانغدونغ، متحف محافظة قوانغدونغ الجديد (تصوير فنغ دونغ لي)

(أسفل اليمين) الصورة 4-22 ملعقة استخدمها الأطباء لغرف الخمر، وخلال فترة الممالك المتحاربة كانت تسمى «الخروف الميمون». من معروضات متحف يوي شنغ تانغ للطب الصيني التقليدي (تصوير فان جيا شان)





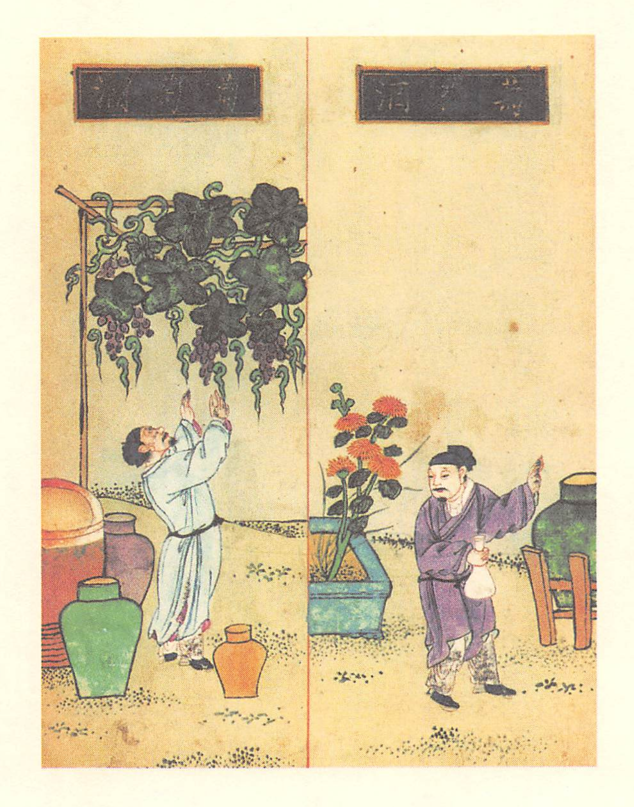


الصورة 4-23 نبيذ العوسج الصيني ونبيذ التوت

يساعد نبيذ العوسج الصيني على تغذية الكلى وتعزيز طاقة اليانغ، كما يعمل كمدر للبول. أما نبيذ التوت فيعمل على تغذية الجسم والحفاظ على الصحة وتقوية الدم.

يعتقد الباحثون أن العوسج الصيني له آثار في علاج السكري وفرط شحميات الدم واضطرابات وظائف الكبد والتهاب المعدة. تسهل صناعة النبيذ الطبي من العوسج الصيني، ولا تتطلب العملية إلا تنظيف الثمرات ووضعها في زجاجة وإضافة بعض النبيذ المعدّ سابقاً لها، وختم الزجاجة ووضعها في مكان بارد وجاف، وهزّها مرة في اليوم، وستتحول إلى نبيذ خلال أسبوع واحد. يُسمّى هذا النبيذ أيضاً «النبيذ الخالد»، ويمكنه أن يحسِّن البصر والجمال، ويعمل كمضاد للشيخوخة، وهو مناسب للكبار في السن. (الصورة 4-23)

وحتى يومنا هذا، لا تزال الصين تحافظ على الكثير من عادات الشرب، وتشمل الأدوية الصينية. فعلى سبيل المثال، في احتفال قارب التنين يشرب الناس القصب الهندي، وفي احتفال منتصف الخريف يشربون نبيذ العبقة المعطر، وفي عيد



الصورة 4-24 نبيذ العنب ونبيذ الأقحوان

يخمر نبيذ العنب بالكامل أو جزئياً من العنب الطازج أو عصير العنب. أما نبيذ الأقحوان فيخمر من الأقحوان والأرز اللزج وخميرة التقطير، وقد كان في الأزمنة القديمة يُسمّى «نبيذ طول العمر»، وهو يساعد على تنشيط الكبد وتحسين البصر وتحفيز الدماغ.

التسعتين (اليوم التاسع من الشهر التاسع في السنة) يشرب الناس نبيذ الأقحوان، وفي ليلة رأس السنة الصينية يشرب الناس نبيذ التوسو (الصورة 4-24).

إنّ الأرز هو المكون الرئيس في «نبيذ السنة» الذي يشربه الكوريون، بالإضافة إلى نبتة «بلاتيكودون كبير الأزهار» والسمادل والقرفة وأدوية عشبية أخرى. يشبه هذا النبيذ نبيذ توسو الذي يشربه أبناء عرق هان، ويعتبر احتساء هذا النوع من النبيذ من التقاليد القديمة في الصين التي مرت من جيل إلى آخر ضمن المجموعات الإثنية المختلفة في الصين.

自然之道

الطب الصيني
التقليدي

الفصل الخامس

أطباء يفعلون ما لا يفعله الآخرون

بيان تشيويه يشفي من يظنه الناس ميتاً

لقد كان بيان تشيويه أول عالم طب حفِظت السجلات التاريخية في الصين سيرته لنا (الصورة 5-1).

بينما كان بيان تشيويه يتعلم الطب مر بتجربة روحية عميقة للغاية. وبحسب كتاب «السجلات التاريخية» الذي ألّفه سيما تشيان، كان بيان تشيويه مسؤولاً عن منازل الضيوف أثناء شبابه، وذات يوم جاءه رجل يدعى تشانغ سانغ، تفرّس بيان تشيويه في وجه ضيفه، ولاحظ أنه رجل استثنائي فعامله بغاية الاحترام. وبالمقابل، أدرك تشانغ سانغ أن مضيفه رجل استثنائي، فتصادق الرجلان. وبعد مرور أكثر من عقد من الزمن على صداقتهما، قال تشانغ سانغ لبيان تشيويه: «لقد تقدم بي العمر، ولديّ دواء سريّ أحب أن أمرر سره لك، ولكن لا يجوز لك أن تكشفه للغرباء». فوافق بيان تشيويه على الشرط.



الصورة 5-1 رسم لبيان تشيويه (تصوير شيه يان وو)

كان بيان تشيويه، المعروف أيضاً باسم تشين يويه رن، طبيباً شهيراً من حقبة الممالك المتحاربة، وقد كان بيان تشيويه هو الاسم الذي يخاطب به للتعبير عن الاحترام والتقدير له. تفوّق بيان تشيويه في الطب والجراحة وطب النساء والأطفال وطب العيون والأذن والأنف والحنجرة، كما برع في استخدام الإبر الحجرية في الوخز الطبي والكي، وفي التدليك وغلي مستخلصات الأعشاب، وغيرها من أساليب علاج الأمراض. ولا يزال الكثير من الباحثين يقدرونه كمؤسس للطب الصيني التقليدي.

أخرج تشانغ سانغ الدواء وأعطاه لبيان تشو، وأخبر بيان تشيويه أن الدواء يجب أن يُتناول مع ماء لم يلمس الأرض مثل الندى، أو الجليد أو الثلج أو الماء في قصب الخيران والخشب، وبعد تناوله بثلاثين يوماً سيتمكن من رؤية أشياء لا يراها الناس الآخرون.

بعد أن أعطى تشانغ سانغ الدواء السري لبيان تشيويه اختفى فجأة، مما دفع بيان تشيويه إلى الاعتقاد بأنه ليس إنساناً عادياً بل مخلوقاً خارقاً. التزم بيان تشيويه



الصورة 5-2 مشهد يُظهر بيان تشيويه وهو يتحكم بإبرة؛ مجسم حجري من حقبة سلالة هان تم اكتشافه في جبل هوي، مقاطعة شاندونغ.

تظهر هذه الصورة الطبيب بيان تشيويه وله رأس إنسان وجسد طائر وهو يقوم بشفاء المرضى من خلال الوخز بالإبر.

بالتعليمات التي أعطاه تشانغ سانغ إياها، فتناول الدواء، وبعد ثلاثين يوماً بدأ يرى من خلف الجدران الناس الواقفين في الجانب الآخر منها. ومع تطور هذه القدرات السحرية لدى بيان تشيويه صار قادراً على رؤية الأمراض وهي تصيب أعضاء المرضى الحيوية الخمسة، ولم يكن يستخدم اختبارات جس النبض إلا كغطاء لإخفاء هذه القدرات لديه (الصورة 5-2).

حين ذهب بيان تشيويه إلى مملكة قوه، رأى الناس وهم يصلون طلباً للبركة، فسأل إن كان أي منهم مريضاً. عندها، قال أحد مسؤولي الدولة، ويدعى تشونغ شو تسي وكان محباً لتعلم الوصفات الطبية، إن الأمير قد فقد وعيه فجأة ومات، وقد كان هذا منذ نصف يوم.

بعد أن استوعب بيان تشيويه التفاصيل قال: «أنا تشين يوي رِن (وهو اسم آخر لبيان تشيويه) من بوهاي، وقد سمعت بموت الأمير المؤسف، ولكنني قادر على شفائه بالرغم من أنكم تظنون أنه ميت». لم يصدق تشونغ شو تسي ما سمعه، وقال: «يا سيد، هل تحاول خداعي؟ لقد سمعت بالطبع أن يوي فو - العبقري القديم - لم يكن يستخدم وسائل العلاج المعتادة مثل مستخلصات غلي الأعشاب والوخز بالإبر والتدليك وغيرها، بل كان يرى موضع المرض من خلال تفحّصه المريض فقط، وبعد ذلك يخترق جلد المريض وعضلاته من خلال نقاط الوخز الخاصة بالأعضاء

الحيوية الخمسة، فينقي أوتار العضلات، بل وحتى محيط الدماغ، ويشد الحجاب الحاجز ويغسل المعدة. إذا كانت مهاراتك عالية إلى تلك الدرجة فربما ستتمكن من شفاء الأمير، ولكن إذا لم تكن لديك هذه المهارات فلا بد أنك تمزح».

وبعدما استمع بيان تشيويه إلى هذه الكلمات نظر إلى السماء وتنهد قائلاً: «أنت تتكلم من نفق ضيق، ولذا فتفكيرك ضيق للغاية». ثم أوضح له بالتفصيل كيف انهار الأمير فاقداً وعيه نتيجة إصابته بمرض لن يشفيه إلا طبيب في غاية المهارة، أما إذا كان الطبيب مفتقراً إلى تلك المهارة فربما سيكون خطراً للغاية على الأمير.

أبلغ تشونغ شو تسي ملك قوه بما قاله بيان تشيويه، فأحضره الملك إليه، وائتمنه على حياة الأمير. عندها تفحص بيان تشيويه الأمير، وبعد ذلك طلب من مريديه أن ينحتوا إبراً حجرية لثقب نقطة باي هوي[1]، ثم صنع دواء الكي الذي يمكنه أن يصل إلى عمق الجسم البشري واستخدمه. لم يمر وقت طويل حتى نهض الأمير وجلس وهو بصحة جيدة، فتابع بيان تشيويه تعديل طاقتي اليين واليانغ في جسمه إلى أن صار بصحة جيدة.

بعد ذلك، شاعت بين الناس فكرة أن بيان تشيويه قادر على «إعادة الموتى إلى الحياة»، لكن بيان تشيويه نفسه أنكر ذلك وقال: «لا يمكنني إحياء الموتى، ولكن يمكنني أن أشفي من يحسب الناس أنهم موتى».

ربما يعتقد البعض أن هذه القصة عن بيان تشيويه مجرد أسطورة، ولكن «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني - الأسئلة المباشرة»، وهو أول كتاب في نظرية الطب الصيني التقليدي، روى هذه القصة لذا لا بد أن تحمل بعض جوانب الصحة. كما أورد كتاب «خه قوان تسي - شي شيان» حواراً مثيراً للاهتمام يشير إلى سبب آخر للشهرة الواسعة التي نالها بيان تشيويه:

في أحد الأيام، سأل ملك وي الطبيب بيان تشيويه: «أنتم إخوة ثلاثة،

---

(1) نقطة باي هوي (Bai Hui): نقطة موجودة في أعلى الرأس، ويعتبرها الأطباء الصينيون التقليديون من النقاط الحيوية في الجسم التي يتم وخزها بالإبر الطبية بهدف الاستشفاء من الأمراض المختلفة التي يتسبب بها الإفراط في تواجد طاقة اليانغ في أعلى الجسد، انظر إلى: https://theory.yinyanghouse.com/acupuncturepoints/gv20 [المترجم].



الصورة 5-3 تصوير حجري لبيان تشيويه وهو يعالج جرحاً، معبد كونفوشيوس في تشيويفو، مقاطعة شان دونغ (تصوير نيي مينغ)

وجميعكم ماهرون في الطب، ولكن لم يشتهر بينكم إلا أنت، واعتبرت الأفضل بينهم، لماذا؟».

فأجاب بيان تشيويه: «إن أخي الأكبر هو الأفضل، يليه أخي الثاني، وأنا الأسوأ بينهم!».

عندها، استغرب الملك وسأله: «لِمَ تقول ذلك؟».

فأجاب بيان تشيويه: «حين يُقدِّم أخي الأكبر العلاج فهو إنما يشفي من المرض قبل حصوله. وهو يستطيع معرفته من خلال مراقبته المريض. ولكن الناس العاديين لا يدركون قدرته على إزالة المرض مسبقاً، ولذلك يحسبون أنه لم يكن لعلاجه أثر ظاهر يذكر. ونتيجة لذلك لم ينَل شهرة واسعة، لكن عائلتي تفهم موهبته وتعرفها. أما أخي الثاني فيشفي الناس أيضاً قبل حصول المرض، ولكن هؤلاء يظنون أنه غير قادر إلا على شفاء الأمراض الثانوية، لذا لم تتجاوز شهرته حدود قريتنا. في حين أنني أعالج الأمراض بعد أن تصبح خطيرة. وحين يرى الناس الوخز بالإبر الذي أستخدمه، والضمادات التي أضعها على جلد المريض، واستخدامي للمخدر الطبي، والعمليات الجراحية الكبرى التي أقوم بها يظنون بالطبع أنني أكثر مهارة وأفضل من أخويّ، ولذلك نلت شهرة أكثر منهما».

فتنهد الملك وقال: «لقد أحسنت القول!».

وهكذا، نرى من خلال الحوار السابق الذي قارن بين أساليب الإخوة الثلاثة في التعامل مع المرض كيف أن طرائق العلاج قد تترك آثاراً متباينة خلال المراحل المختلفة من المرض، ويدلّنا فهم بيان تشيويه للطب وتواضعه الصادق على أهمية الوقاية من المرض، وأنّ لها الأولوية (الصورة 5-3).

كما تقدم بيان تشيويه بنظرية «ست فئات من الناس لا يمكن شفاؤهم» وهم: المتكبرون المنغمسون في الملذات الجسدية دون ضابط، والمستغرقون في جمع المال دون الالتفات إلى حياتهم الشخصية، والعاجزون عن تعديل ثيابهم وطعامهم بحسب ما يفرضه المرض عليهم، والذين لا يوجد توازن بين طاقتي الين واليانغ في أجسادهم حيث تكون طاقة التشي في أعضائهم الداخلية غير واضحة، وضعفاء الأجساد الذين لا يقدرون على تحمل الأدوية، والواثقون بالسحرة ولكن ليس بالأطباء.

إذا وقع أي مريض تحت إحدى هذه الفئات الست فسيكون شفاؤه أمراً صعباً للغاية. أما إذا لم يمرض بعد فباستطاعة الطبيب الماهر ليس أن يشفيه فحسب، بل أن يدله أيضاً على طرائق للحفاظ على صحته وتوازنه لفترات طويلة.

من الأسباب الأخرى التي أدت إلى اتساع شهرة بيان تشيويه حبّه للناس وممارسته الطب بحسب عادات الأماكن المختلفة التي حل بها. فحين ذهب إلى هاندان في مملكة تشاو ورأى فيها أن الناس يحترمون النساء تعلم الطب النسائي، وحين ذهب إلى لويانغ ورأى أن الناس فيها يحترمون الكبار في السن تخصص في طب العيون والأذن ومعالجة آلام المفاصل؛ وذلك لأن هذه الأمراض تصيب الكبار في السن كثيراً. وحين وصل إلى مقاطعة شيانيانغ رأى أن شعب تشين يحب الأطفال كثيراً فتخصص في طب الأطفال. وهكذا، رغم الشهرة التي نالها لكونه - بحسب اعتقاد الناس - «الطبيب الذي يعيد الموتى إلى الحياة»، علينا أن نحترم قدرته على التكيف مع حاجات البلاد المختلفة التي حل بها واحترامه لعاداتها (الصورتان 5-4 و5-5).

قال المؤرخ الشهير سيما تشيان: «النساء - سواء أكن جميلات أم قبيحات - يتعرضن للحسد إذا دخلن القصر. والعلماء - سواء أكانوا متمكنين أم لا - يتعرضون للحسد إذا خدموا العائلة المالكة».

عرف طبيب الإمبراطور تشين أنه لا يمكنه أن يضاهي مهارات بيان تشيويه الطبية، ولذلك أرسل من يغتاله. وهكذا، لم يتعرض بيان تشيويه للحسد بسبب مهاراته الطبية فحسب، بل تعرض للاغتيال بسببها أيضاً.



(الأعلى) الصورة 5-4 قبر بيان تشيويه، قرية فوداو، مقاطعة تانغين، محافظة خنان (تصوير وانغ تسي روي)

ذُكِر في كتاب «حوليات مقاطعة تانغ يين» أن حديقة من الشيح الصيني تحيط بقبر بيان تشيويه، وأن الرائحة التي تصدر عنها رائعة. باستطاعة الشيح أن يشفي من الكثير من الأمراض، وقد كان من بين الأشياء التي تُدفع للإمبراطور كضريبة خلال عهد سلالة مينغ، ولا يزال الناس يعتقدون أن الشيح النامي قرب قبر بيان تشيويه قادر على الشفاء من جميع الأمراض.

(الأسفل) الصورة 5-5 معبد بيان تشيويه، قرية فوداو، مقاطعة تانغين، محافظة خنان (تصوير وانغ تسي روي)

تظهر هذه الصورة معبد بيان تشيويه في قرية فوداو، مقاطعة تانغين، محافظة خنان. وبحسب الأسطورة، اغتيل بيان تشيويه هنا، ودفنه سكان القرية في المكان الذي قُتِل فيه وبنوا له معبداً.



لم يخلِّف بيان تشيويه وراءه أي آثار مكتوبة. ومع أن كتاب «حوليات هان - سجلات الفنون» قد حفظ لنا تسعة مجلدات تحت اسم «الكتاب المرجعي في الطب الباطني لبيان تشيويه» و12 مجلداً تحت عنوان «كتاب بيان تشيويه المرجعي في الطب الخارجي»، فالمرجّح أن هذه الأعمال كتبت باسم بيان تشيويه ولكنها ليست من تأليفه شخصياً.

أمضى بيان تشيويه حياته ممارساً مهنة الطب ومسافراً من منطقة إلى أخرى في الصين، حيث اجتاز نصف مساحة البلاد أثناء أسفاره. توجد اليوم قبور عدة لبيان تشيويه في عدة مناطق في الصين. فعلى سبيل المثال، يوجد معقل يدعى فوداوقانغ في مقاطعة تانغين في محافظة خنان. وبحسب ما تقوله الأسطورة، ذلك هو المكان الذي اغتيل فيه بيان تسوي ولذلك نجد له قبراً هناك، ويحمل ذلك القبر كتابات منقوشة يعود تاريخها إلى حقب متعددة من أيام سلالات يوان ومينغ وتشينغ.

كما تحتوي بلدة تشينغ هوا في مقاطعة يونغتشي، محافظة شانشي، مزاراً وقبراً لبيان تشيويه، ويوجد أمام القبر تمثال حجري لعنزة ونصب يعود تاريخهما إلى أيام سلالتي سونغ ومينغ، ويمكننا أيضاً أن نجد قبراً لبيان تشي في قرية نانتشِن على بعد 15 كيلومتراً شمال شرق مقاطعة لينتونغ في محافظة شانشي. وبحسب أسطورة أخرى، ذلك هو المكان الذي قُتِل فيه بيان تشيويه وحيث دفن.

يعتبر معبد بيان تشيويه في محافظة نيي تشيو، شينغ تاي، محافظة خبي، أضخم وأقدم مبنى تم إنشاؤه إحياء لذكرى بيان تشيويه. وقد زارته أجيال من الأباطرة ورجال البلاط والأدباء والشعراء سواء أكان ذلك بهدف التنزه في المنطقة أم لأداء طقوس العبادة في معبد أستاذ الأطباء الصينيين. وقد ترك الكثيرون منهم قصائد رائعة وجميلة هناك، بالإضافة إلى نقوش ونصب حجرية لإحياء ذكراه. (الصورة 5-6)



الصورة 5-6 تمثال برونزي لبيان تشيويه، قرية فوداو، مقاطعة تانغين، محافظة خنان (تصوير شيه يان وو)

سون سي مياو، طبيب عظيم لعامة الناس

في ياوتشو، مقاطعة شنشي ارتفع جبل عرف باسم ياو وانغ (ملك الطب). وفي سنة تيانباو خلال حقبة سلالة تانغ أعيدت تسمية الجبل، فصار اسمه «جبل حجارة الأجراس»؛ وذلك لأنه يتألف من خمس قمم مسطحة تمتد في شكل دائري وكأنها خاتم. وبعد ذلك، سُمِّي جبل ووتاي (جبل القمم الخمس).

عاش الطبيب سون سي مياو خلال حقبة سلالة تانغ، وقد أمضى فترة طويلة من حياته معتزلاً في هذا الجبل، وقد اشتهر سون سي مياو باسم «ملك الطب»، ولذلك سمي هذا الجبل باسمه: جبل ملك الطب.

يرتفع «جبل ملك الطب» إلى 800 متر فوق سطح البحر، ويحتوي على غابات



الصورة 5-7 جبل ياو وانغ (جبل ملك الطب) ياو تسو، محافظة شان شي



خلابة يسودها الهدوء وتُشعِر بالطمأنينة، كما يحتوي على كهوف عميقة وهادئة وطرق متعرجة. توجد الكثير من المعابد البوذية والطاوية في الجبل؛ بعضها مخبأ بين أشجار الصنوبر والسرو، وبعضها الآخر بارز ومهيب لا تخطئه الأعين.

وبالإضافة إلى البوابة الفخمة والأعمدة الملونة وألواح الخشب المنقوشة والموجودة في الجبل، يحتوي على تمثال لملك الطب مصنوع من الجاد. ويمكنك أن ترى الأحرف الخمسة المنقوشة على حافة الجبل الشمالية والتي تعني: جبل ملك الطب في الصين. بنت الأجيال التالية معابد، ونصبت تماثيل لتحفظ ذكرى سون سي مياو؛ مما جعل جبل ملك الطب من بين الأراضي التي يقدسها ممارسو الطب الصيني التقليدي (الصورة 5-7).

عاش سون سي مياو حياة طويلة امتدت لأكثر من مئة سنة عبر زمن سلالتي سوي وتانغ. وبحسب ما ذكره كتاب «حوليات تانغ القديمة - سيرة حياة سون سي مياو» كان الطبيب في شبابه ذكياً وصاحب ذاكرة قوية، وحين رآه دو قو شين - حاكم لوه تشو أثناء زمن سلالة تسو الشمالية - في طفولته أعجب به واعتبره «طفلاً مميزاً».

في المرحلة التالية من حياته، أصبح سون سي مياو يعاني من الضعف والمرض في جسمه، ولذلك كان كثيراً ما يضطر إلى الذهاب إلى الطبيب، وقد استهلكت تكاليف علاجه بمستخلصات غلي الأعشاب التي كان الأطباء يصفونها له أملاك عائلته، ولذلك اهتم سون سي مياو بكتب الطب كثيراً أثناء دراسته، وطمح إلى أن يصبح طبيباً متفوقاً، وقد التزم بتحقيق حلمه هذا حتى وفاته (الصورة 5-8).



الصورة 5-8 تصوير لسون سي مياو، متحف أجياو الصيني (تصوير أ قوه تشينغ)

في ثلاث مرات خلال حياته، قام أباطرة مختلفون بتعيين سون سي مياو في وظائف رسمية، ولكنه رفضها في كل مرة. كانت المرة الأولى حين عيّنه الإمبراطور وِن من سلالة سوي طبيباً للبلاد، ولكن سون سي مياو رفض ذلك المنصب. وبعد ذلك، أرسل إليه الإمبراطور تاي تسونغ طالباً منه القدوم إلى العاصمة ليعينه مسؤولاً في بلاطه، ولكنه رفض العرض مجدداً. وكانت المرة الثالثة أثناء حكم إمبراطور من سلالة تانغ هو لي تشي، فقد أرسل إليه ومنحه منصب جيان يي دافو (أي المسؤول عن وعظ الإمبراطور وتذكيره بالمعروف) ولكن سون سي مياو رفض المنصب للمرة الثالثة بشكل قاطع. ربما كان غيره سيتعامل مع هذه المناصب على أنها أقصى غايات حياته، ولكن سون سي مياو تعامل معها وكأنها لا شيء، وتابع حياته العادية بين عامة الناس.

لهذا السبب، سمّاه الناس «الطبيب العظيم لعامة الناس». ولكن، ليس سبب هذه التسمية تلك القصص المفعمة بالحياة التي حفظها لنا الفولكلور الشعبي فقط، وإنّما بسبب معرفته العميقة أيضاً وفهمه المميز لمعنى أن يكون الإنسان طبيباً.

لقد كان سون سي مياو إيجابياً دائماً في تعامله مع الأمراض. فحين أصيب لو تشاو لين - وهو أحد شعراء الصين العباقرة الأربعة خلال حقبة سلالة تانغ - بمرض التهاب المفاصل المتنقل وطال مرضه لجأ إلى سون سي مياو قائلاً له: «لماذا يصعب شفاء مرضي بهذا الشكل؟».

فأجابه سون سي مياو: لدينا في الطبيعة أربعة فصول، وخمسة عناصر، وتبدل دائم بين السخونة والبرودة. إذا تناغم الين واليانغ في الطبيعة يستحيل الأمر إلى شتاء، وإذا لم يكونا كذلك يستحيل إلى هواء، وحين يتكاثفان يتحولان إلى جليد، وحين يتفرقان يستحيلان إلى قوس قزح. وللإنسان أيضاً أربعة أطراف، وخمسة أعضاء داخلية. بعض هذه الأعضاء مستيقظ وبعضها الآخر نائم، وتتحوّل حركة الأنفاس بين الشهيق والزفير إلى طاقة التشي الحيوية، ويظهر أثر التشي في ألوان الوجه المختلفة، كما يظهر عنها أصوات كثيرة. تلعب طاقة اليانغ دورها من خلال أشكال الأشياء الخاصة بها. أما طاقة الين فتلعب دورها من خلال مادة الأشياء الخفية. وينطبق ما يحصل في الطبيعة على الإنسان؛ فإذا اضطربت هذه



الصورة 5-9 ملك الطب سون سي مياو، رسم جداري لليانغ لي يه وتلامذته، بلدة قوانلِن، مدينة لويانغ، محافظة خنان (تصوير نيي مينغ)

ملك الطب سون سي مياو، يظهره هذا الرسم وهو جالس على ظهر نمر بينما يقف تنين قرب يده اليسرى، ويشار إلى هذين المخلوقين «بـالنمر والتنين الحارسين».

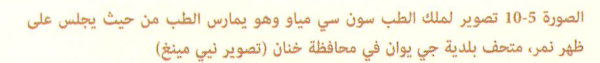
القوانين الطبيعية الكونية فسوف يصبح لدينا نشاط مفرط في طاقة اليانغ وانحباس في طاقة اليين، فتتكثف طاقة التشي والدم معها، وتبدأ الأورام بالظهور. كما أنّ الانحسار في طاقة التشي تنتج عنه تقرحات في الجسد، وتؤدي فوضى التشي إلى السعال والنعاس الشديد، ونضوب دوران الدم سيجعل المرء يبدو نحيلاً وضعيفاً (الصورة 5-9).

ينطبق الأمر ذاته أيضاً على السماء والأرض. فإذا اضطرب دوران النجوم الخمسة وحصلت فوضى وتصادف ذلك مع مرور شهاب في السماء، فستكون هذه كارثة على الطبيعة بأسرها. فإذا لم يتعاقب الشتاء والصيف بحسب ترتيب الفصول فهذا يعني وجود نشاط مفرط لليانغ في الطبيعة مقابل انسداد اليين، وتراكم الحجارة والتراب عبارة عن انتفاخات في جسد الطبيعة، والشقوق والوهاد في الجبال وانحسار الأراضي إنما هي التقرحات عليها، وسوف تجعل العواصف التنفس أمراً صعباً؛ مما سيصيب الطبيعة بالنعاس.

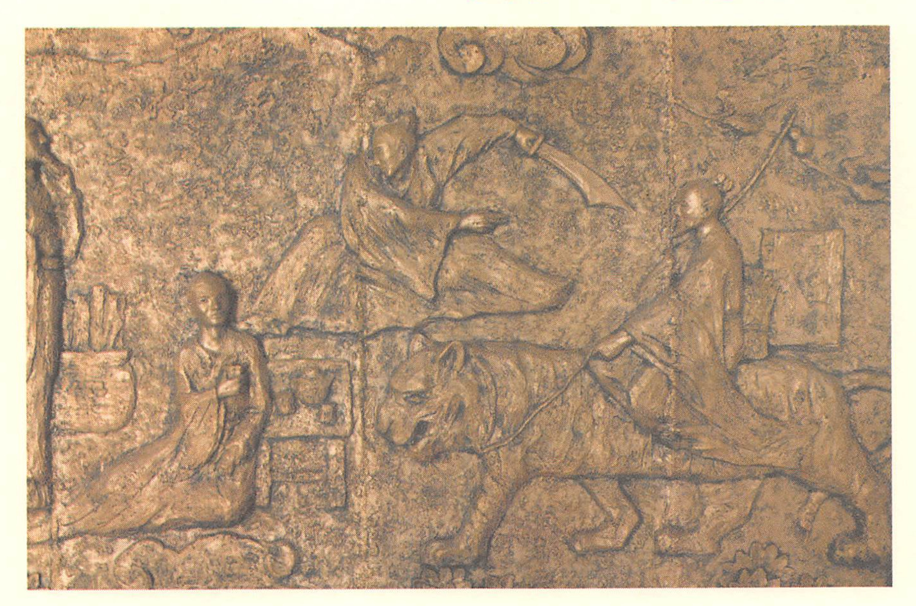


تظهر هذه الإجابة المفصلة والرائعة جوهر المفاهيم التي قام عليها الطب الصيني التقليدي؛ إذ يقارن الجسم البشري بالسماء والأرض والتوازن القائم بينهما. فكما تعتدل الطبيعة بهذا التوازن كذلك يظل جسد الإنسان صحيحاً وسليماً طالما أن التوازن قائم فيه. وكما أن فقدان التوازن في الطبيعة يؤدي إلى الكوارث، كذلك يؤدي فقدان التوازن في جسد الإنسان إلى الأمراض؛ وهذه هي النظرة العميقة التي ينظر بها الطب الصيني التقليدي إلى حقيقة مرض الإنسان.

كما يُشبِّه الطب الصيني التقليدي شفاء الأمراض بإدارة شؤون الدولة. وقد قيل في هذا الشأن: «الطبيب الماهر يشفي الأمراض باستعمال الأدوية والإبر الحجرية للوخز الطبي، والقديسون يديرون البلاد من خلال الفضائل المعززة بالإدارة الشخصية الصحيحة، ولذلك نقول إن بعض الأمراض الإنسانية قابلة للشفاء، كما يمكننا تدارك بعض الكوارث الطبيعية». إذاً، يسترشد ممارس الطب الصيني التقليدي بهذه الجدلية المادية والروحية والطبيعية ليسبر أغوار ذلك العلم، وكلما غاص فيه أكثر توسعت آفاقه وازدادت مهارته في شفاء الأمراض المستعصية (الصورة 5-10).



الصورة 5-10 تصوير لملك الطب سون سي مياو وهو يمارس الطب من حيث يجلس على ظهر نمر، متحف بلدية جي يوان في محافظة خنان (تصوير نيي مينغ)



قدم لنا سون سي مياو توصيفاً دقيقاً للفضائل الأخلاقية التي يجب على الطبيب أن يتحلى بها، فقال إن الطبيب ينبغي أن يكون دقيقاً وجريئاً ومستقيماً وذكياً، كما يجب عليه أن يجمع بين الدقة في الأسلوب والصدق في المعاملة، ثم أوضح أن الوصول إلى الدقة في الأسلوب أمر ممكن من خلال التبحر في دراسة المبادئ الطبية والتعمق فيها أيضاً، أما الصدق في المعاملة فينتج عن معاملة الطبيب لمرضاه على أساس المساواة؛ حيث لا يتكبر عليهم ولا يضيق ذرعاً بهم، إذ قد يكونون مصابين بصدمات نفسية أو بالإسهال المتكرر أو قد تنبعث منهم روائح كريهة وغير ذلك من المنفرات المرتبطة بالأمراض وأعراضها والإصابات البدنية. لذا، على الطبيب أن يكون حذراً ودقيقاً أثناء معالجته للأمراض، حيث يقدم لمرضاه تشخيصاً دقيقاً ووصفات صحيحة. أما في التعامل العام فعلى الطبيب أن يكون متواضعاً وفطناً، فلا يقلل من شأن زملائه ليرفع من شأنه هو، ولا يسعى لسلب مريضه ماله من خلال مهاراته الطبية.

كتب سون سي مياو جميع هذه الوصايا في كتاب أسماه «وصفات قيِّمة للحالات الطارئة». وحتى في زماننا الحاضر، لا تزال هذه الوصايا تعتبر المتطلبات الرئيسة لتحصيله العلمي ومتطلباته وأخلاقياته ومعاييره العملية، ولذا يمكننا أن نعتبر سون سي مياو بحق أبا الأخلاقيات الطبية (الصورة 5-11).

كتب كاتب المسرحيات الشهير تيان هان قصيدة عن جبل ملك الطب، وتعبِّر هذه القصيدة عن حب الناس لسون سي مياو، الطبيب العظيم لعامة الناس الذي استحق جميع ألفاظ المحبة والتقدير التي أطلقها الناس عليه عبر التاريخ.



الصورة 5-11 تمثال لملك الطب سون سي مياو، على قمة تشويوي في جبال يونتاي، مقاطعة شيووو، محافظة خنان (تصوير يو يا هوي)

كان شيوي دا تشون مستعداً للتضحية بحياته

أثناء حقبة سلالة تشينغ درج بين الناس فن غنائي سُمي: «داو تشينغ» لأنه كان يستخدم لغة عامية بسيطة، ويستخدم تعابير يسهل شيوعها على ألسنة العامة. قد نستغرب من فكرة أن شيوي دا تشون (1693-1771) قد ألّف أغنية بأسلوب داو تشينغ، غير أنه قام بذلك بالفعل. ولكن قصيدته أو أغنيته كانت تتحدث عن الفضائل التي يجب على الطبيب أن يتحلى بها، وتنتقد الأطباء التجريبيين الذين لا يقرأون فنون الطب القديمة، ويهملون الحقائق التي تعتمد عليها حياة الإنسان وصحته، ويجربون الأدوية التي قد تؤدّي إلى قتل المريض نتيجة تناوله أدوية غير مناسبة. وبالمقابل، يخبرنا شيوي دا تشون بما يجب على الطبيب الحقيقي فعله، واصفاً سمو مهنة الطبيب بل قدسيتها في حقيقتها وجوهرها.

وبحسب ما تقوله الأساطير، كان مظهر شيوي دا تشون غير اعتيادي بكل معنى الكلمة. فقد كان نحيف الجسد، وذا جبهة عريضة، ولكن صوته كان جهورياً كصوت الجرس. وبعد أن تقدّم به العمر، زيّنت وجهه لحية بيضاء طويلة زادت من غرابة مظهره. أمضى شيوي دا تشون حياته منعزلاً في بيته المحاط بجدول ماء، فقد كان هناك نبع ماء يتدفق أمام منزله، كما أحاطت به أشجار الصنوبر وقصب الخيزران؛ مما جعل المنظر من هناك يبدو أخاذاً. وحين كان شيوي دا تشون يصعد إلى طابق العلوي من منزله ويطل من الشرفة هناك كان يرى أمامه قمم الجبال وبحيرة تاي هو. وقد وصفه من رآه وهو يطل من هناك بأنه بدا وكأنه كائن خارق أكثر من كونه إنساناً عادياً.

بحسب كتاب «سيرة حياة شيوي لينغ تاي» الذي ألّفه يوان مي أثناء حقبة سلالة تشينغ، ولد شيوي دا تشون في وو جيانغ في مقاطعة جيانغسو، وقد كان لينغ تاي هو لقب الاحترام الموجه إليه، أما هو فقد سمّى نفسه بعد أن تقدم به العمر: «رجل هوي شي العجوز». أظهر شيوي دا تشون مواهب فذة في عمر مبكر، وقد صقلها من خلال جهد كبير بذله في الدراسة؛ حتى برع في العلوم الطبية وتمكّن منها. ومن بين الكتب التي ألّفها «استخدام الأدوية كاستراتيجيات»، وقد قارن فيه بين معالجة الأمراض والعلوم العسكرية، ووصف هذه المقارنة بالتفصيل.



الصورة 5-12 رسم لشيوي دا تشون

وقد عبَّر يوان مي عن مهارة شيوي دا تشون الطبية بقوله إن أساليب العلاج التي كان يتّبعها بدت وكأنها حوار مباشر أجراه مع الأعضاء الداخلية. فقد كان يشخص الأمراض بدقة منقطعة النظير، أما استخدامه للأدوية فقد قارنه يوان مي بطريقة نشر الجنرال تشو يا فو (عهد سلالة هان) لجنوده أثناء المعركة؛ فعلى الرغم من أن تلك الطريقة كانت على خلاف المعتاد في العلوم العسكرية إلا أنها كانت فعالة للغاية، وكذلك أذهلت أساليب شيوي دا تشون زملاءه، وجعلتهم يعجبون به دون أن يفقهوا كيف تمكن من فعل ما كان يفعله (الصورة 5-12).

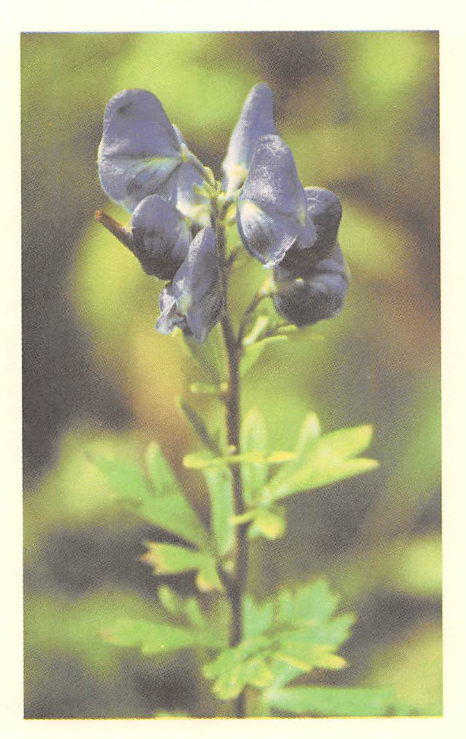
ويروي لنا كتاب «سجلات هوي شي الطبية» قصة تظهر مهارة شيوي دا تشون منقطعة النظير:

ظل ماو جيه تانغ - ابن ماو ليوي خه - يعرق طوال الصيف، وقد عانى أثناء ذلك من ضعف في النبض وبرودة في الأطراف واحمرار في الوجه وانقطاع في النفس، ولما رأى الأطباء التعرق واحمرار الوجه - وخاصة مع ارتفاع درجة الحرارة في الصيف - ظنوا أن المرض لا يعدو عن كونه حمى صيفية، فعالجوه باستخدام الأدوية المخفضة لدرجات الحرارة. لكن، حين تفحّص شيوي دا تشون المريض قال: «هذا المرض سيقضي قريباً على طاقة اليانغ في جسده كلها. لذا، على المريض أن يتناول مستخلص غلي الجينسنغ مع خانق الذئب لينقذ طاقة يانغ في جسده». لكنّ وصفة مستخلص غلي الجينسنغ وخانق الذئب كانت لها آثار جانبية قوية للغاية، كما أن أسلوب العلاج هذا الذي وصفه شيوي دا تشون كان مختلفاً تماماً

عما وصفه سائر الأطباء، لذا تردد والد ماو جيه تانغ في إعطاء ابنه الدواء، وظل في حيرة من أمره (الصورتان 5-13 و5-14).

لكنّ شيوي دا تشون قال له بوضوح لا لبس فيه: «نحن صديقان، ولأننا كذلك فأنا لا أريد أن أرى ابنك وهو يموت بهذه الطريقة. كما أنني لا أجرِّب الأدوية على مرضاي! وإذا كان علاجي خاطئاً فأنا مستعد للموت أيضاً».

وبعد أن تناول المريض الدواء الذي وصفه شيوي دا تشون توقّف عن التعرق، وبدأت درجة حرارة جسمه بالعودة إلى طبيعتها، كما أصبح قادراً على النوم الهنيء ليلاً. بعد ذلك، غيّر شيوي دا تشون الدواء مرة أخرى، وبعد



الصورة 5-13 نبتة خانق الذئب (الأكونيت)، حديقة كون مينغ النباتية، محافظة يونان (تصوير شينغ بين)



الصورة 5-14 خانق الذئب (الأكونيت، عشبة طبية صينية)

يستخدم جذر هذه النبتة المنتمية إلى فصيلة الحوذانيات (Ranunculaceae) في الأدوية. وطبيعتها حارة، وهي سامة ونفاذة الرائحة وحلوة الطعم.



15-5 الجص (تصوير شيوي شيوي مانغ)

الجص لاذع الطعم. يصنع «مستخلص غلي النمر الأبيض» الموصوف في «رسالة في الأمراض الحميّة» من نبتة الجذمور وحبيبات الأرز المستديرة وعرق السوس المشوي.

أقل من عشرة أيام شُفِي ماو جيه تانغ تماماً؛ فأظهرت هذه الحالة الطبية تفوّق مهارة شيوي دا تشون الطبية، وثقته في قدراته، وتحمله مسؤولية قراراته.

كذلك دوَّن لنا يوان مي القصة التالية:

كان هناك مريض ألزمه سقمه الفراش، وكان يرفض أن يتناول أي طعام أو شراب، وظلت حاله كذلك لستة أيام، لكنّ عينيه ظلتا تلمعان، وقد ظهرت علامات التنبه واليقظة فيهما. بعد أن تفحّصه شيوي دا تشون قال: «هذه هي أعراض الصراع بين الين واليانغ».

وبعد أن تناول المريض بعض الأدوية صار بإمكانه أن يغمض عينيه ويتحدث. وبعد أن أعطاه شيوي دا تشون مستخلص غلي قفز من فراشه وقد شُفِي تماماً. بعد تلك التجربة، قال المريض متذكراً ما حصل له: «كنت أشعر أنني أموت. وأثناء تلك الحالة، رأيت رجلين؛ أحدهما أسود والآخر أحمر، ولكن فجأة قتل البرق الرجل الأسود، ثم جاء نمر أبيض وأخذ الرجل الأحمر. ما الذي يعنيه هذا؟».

ضحك شيوي دا تشون وهو يجيب: «البرق والنمر الأبيض هما المستخلصات

التي وصفتها لك». وهذه القصة تظهر أيضاً مهارة شيوي دا تشون منقطعة النظير (الصورة 5-15).

أما أغرب ما روي عن شيوي دا تشون فقد كان حين استُدعِي إلى العاصمة مرتين. ففي المرة الأولى، كان في حوالي الستين من عمره، وقد استُدعِي ليعالج العالم جيانغ وِن كِه، وهو عالمِ عظيم في قصر وِن هوا، وكان الإمبراطور قد استجلب له الأطباء من أرجاء البلاد كافة، فقال له وزير العدل تشين هوي تان إن شيوي دا تشون هو خياره الأفضل. وبعد أن وصل شيوي دا تشون إلى العاصمة، قام بفحص جيانغ وِن كِه، وبعدها أخبر الإمبراطور بصراحة أن مرضه غير قابل للشفاء، فقدر فيه الإمبراطور صدقه وتعامله الواقعي والعملي مع مرضاه وأراد أن يوظّفه في البلاط، ولكن شيوي دا تشون أصر على الاعتذار، راجياً الإمبراطور أن يسمح له بالعودة إلى مسقط رأسه.

وبعد هذه الحادثة بحوالي العشرين سنة، أصيب أحد خصيان الإمبراطور المقربين والموثوقين بالمرض، فاستدعى الإمبراطور شيوي دا تشون إلى العاصمة. كان شيوي دا تشون في التاسعة والسبعين من عمره في ذلك الوقت، وكان يشعر بالضعف الذي خلفه مرور السنين على جسده، وأحس بأنه قد لا يعود إلى بلدته حياً، ولذلك طلب من ابنه أن يأخذ معه كفنه في الرحلة. ولم يمهل القدر شيوي دا تشون إلا ثلاثة أيام بعد وصوله إلى العاصمة فتوفي هناك، مما أثار حزن الإمبراطور فأغدق على ابنه هدايا الذهب والفضة، وأمره بمرافقة جثة أبيه المكفنة إلى مسقط رأسيهما.

ألّف شيوي دا تشون عدداً كبيراً من الكتب مثل: «شروح على كتاب الأسئلة المرجعي»، و«»الوصفات المتماثلة في رسالة في الأمراض الحمية خارجية المنشأ»، و«نقاشات في أصول الطب وتطوره»، و«سجلات كتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب المئة»، وغيرها... ولا يزال الناس يمدحونه حتى يومنا هذا، ليس لأجل مهارته الطبية فقط، بل لأخلاقياته العالية وفضائله السامية أيضاً.

ليو وان سو، طبيب جاهز للإبداع

بحسب ما ذكره كتاب «ملخّص فهرس سيكو تشيانشو العام»، بدأ انتشار مدارس فلسفة كونفوشيوس المختلفة في الصين في زمن سلالة سونغ، بينما ظهرت مدارس الطب المختلفة في زمن سلالة جين، حتى وصلت إلى قمة ازدهارها في زمن سلالة تانغ. وأثناء قرون التطور هذه، تنافست مدارس عديدة في ما بينها. ففي زمن سلالتي جين ويوان بزغ نجم أربعة أطباء عرفوا بالأطباء العظام الأربعة، وهم: «ليو وان سو»، و«تشانغ تسونغ تشنغ»، و«لي قاو»، و«تشو تشن هنغ». وقد أنشأ كل منهم مدرسته الخاصة، ولكن لا شك في أن ليو واسن سو كان أعظم أولئك الأطباء الأربعة، ومؤسس ما عرف باسم «المدرسة الباردة». (الصورتان 5-16 و5-17).

أُطلق على ليو وان سو اسم الاحترام شو تشن، أما هو فكان يدعو نفسه خجيان جيويشي. ولد ليو وان سو في السنة الرابعة من حكم الإمبراطور داقوان من سلالة سونغ (1110 ميلادية)، وتوفي في السنة الخامسة من حكم الإمبراطور تشنغ آن من سلالة جين (1200 ميلادية)، وهو ينحدر من منطقة خجيان، ولذلك كثيراً ما يطلق الناس في الأجيال اللاحقة عليه لقب التحبب: ليو خجيان.

نشأ ليو وان سو في عائلة فقيرة. وحين كان في الثالثة من عمره انتقلت عائلته إلى مقاطعة خجيان في محافظة خبي. وخلال تلك الفترة، وقعت أمه فريسة المرض، ولكن فقر العائلة منعها من زيارة طبيب ليعالجها، فأدى التأخر في تلقيها العلاج إلى وفاتها. ومنذ ذلك الوقت، عزم ليو وان سو على دراسة الطب.

عشق ليو وان سو قراءة الكتب الطبية، ولكنه بعد أن قرأ عدداً كبيراً منها قرر أن الكتب لا ترقى إلى مستوى الجودة الذي يطمح إليه؛ باستثناء كتاب واحد هو «الأسئلة المباشرة» الذي ظل يقرأ فيه كل يوم لمدة خمس سنوات. أمضى ليو وان سو وقتاً طويلاً في التأمل منفرداً بنفسه؛ على أمل التوصل إلى الحقيقة الكامنة خلف الأشياء. وفي إحدى جلساته التأملية، غاب عن الواقع، ورأى رجلَي دين طاويين يدخلان غرفته ويقدمان له كأساً صغيرة من الشراب، ولكنه دهش حين وجد أنه مهما شرب من الكأس لم يكن يستنفد الشراب الذي فيها. وحين استعاد وعيه لم يرَ أحداً في غرفته، ولكنه ظل يشعر بطعم الشراب في فمه. بعد

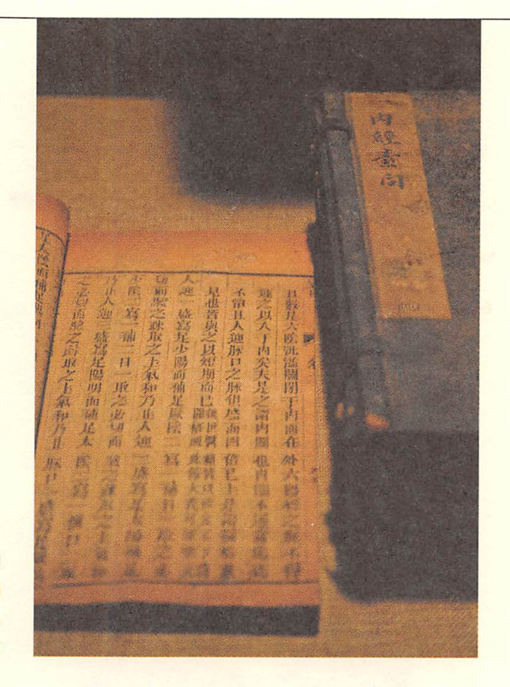


الصورة 5-16 رسم لليو وان سو



الصورة 5-17 رسم للي قاو (الصفحة 124)

كان لي قاو (1180-1251) أحد «أطباء حقبة جين ويوان المشهورين الأربعة»، وهو مؤسس نظرية «الطحال والمعدة»، وتعتبر الكتب التالية «التفريق بين الأذى الباطني والظاهري»، و«رسالة في الطحال»، و«كتاب سري يحفظ في الغرفة» أهم أعماله الطبية.



الصورة 5-18 «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني - سو ون «الأسئلة المباشرة»، نسخة من الكتاب في معرض كونفوشيوس الثقافي في الكلية الإمبراطورية في معبد كونفوشيوس في بكين

ذلك، وجد نفسه قادراً على فهم جميع المشاكل الطبية بمجرد قراءتها. إذاً، ربما رمزت الكأس التي لا ينضب شرابها إلى النظريات الخفية اللامتناهية التي يحملها كتاب «الأسئلة المباشرة» في ثناياه! (الصورة 5-18).

كانت منطقة خجيان التي عاش فيها ليو وان سو ساحة القتال التي شهدت المعارك الكبرى بين شعب جين والسهوب المركزية، وترافق ذلك مع الكثير من الكوارث الطبيعية وانتشار الأوبئة، لكن الناس ظلوا يتّبعون العادات الطبية التي توارثوها من زمن سلالة سونغ، كما ظلوا يستخدمون الأدوية المسجلة في «وصفات تاي بينغ الخيِّرة لمكتب المستوصف». لكن معظم ما سُجِّل في هذا الكتاب كان عبارة عن وصفات حارة، لذا كان استخدامها في علاج الحمى يؤدي إلى نتائج عكسية.

في ذلك الوقت، وجد ليو وان سو متسعاً للإبداع، فتقدم بنظريته «النارية». فبعد دراسة معمقة للحمى وأنواعها في «الأسئلة المباشرة»، كتب بالتفصيل عن أسباب الأمراض، مبيناً إياها في كتابه الشهير الذي أسماه: «تسعة عشر مقالاً في أسباب الأمراض».

قال ليو وان سو في كتابه هذا إن مصادر التشي الستة: الرياح والبرد والسخونة



الصورة 5-19 الاسقوتلارية، عشبة طبية صينية (تصوير شيوي شيوي مانغ)

الاسقوتلارية الطبية باردة ومرة المذاق، وتساعد على تخفيض درجات الحرارة وتبريد الدم وإزالة الحرارة الباطنية والحمى.



الصورة 5-20 كرنب البحر (اللّاميناريَة) (تصوير شيوي شيوي مانغ)

نبتة باردة ومالحة المذاق تساعد على التخفيف من الركود، وإزالة الرطوبة من الجسد، وتعمل كمادة مدرة للبول ومسهلة، كما تساعد على إذابة البلغم.

والرطوبة والجفاف والنار يمكنها أن تتسبب في شرور نارية، وإنه على الطبيب أن يعي هذه الحقيقة قبل أن يكتب أي وصفة طبية. وبعد أن جمع في دراسته فهمه لأغذية سكان المنطقة وطبيعة أجسادهم، تقدم بنظرية مفادها أنه عليهم تناول أدوية باردة لمعالجة الحمى المعدية التي تفشت بينهم. وقد أدّت توصياته إلى نتائج طيبة، ولا تزال المساحيق التي استخدمها كوصفات طبية واسعة الاستخدام؛ حتى في زماننا الحاضر. ولأن ليو وان سو خالف طريقة العلاج الشائعة في زمانه - القائمة على استخدام الأدوية الحارة - واستخدم أدوية باردة بدلاً منها ليشفي الكثير من الأمراض سميت المدرسة التي أنشأها: «المدرسة الباردة» **(الصورتان 5-19 و5-20)**.

لقد امتلك ليو وان سو مهارات طبية فائقة، لذا لجأ الكثير من المرضى إليه.

وفي أحد الأيام رأى جنازة، وقيل له إنها لامرأة عانت من نزيف ناتج عن عسر الولادة مما أدى إلى وفاتها. لكنّ ليو وان سو لاحظ أن الدم كان لا يزال يتدفق من الكفن، فعرف أن المرأة لا تزال على قيد الحياة، وطلب من حملة الكفن وضعه على الأرض فوراً ليقوم بفحص المرأة ومعالجتها. وبعد أن تفحّصها، وخز نقطة يونغ تشياو[1] في جسمها بضع مرات فاستفاقت من غيبوبتها. وبعد ذلك، وخز نقطتي هي خقو[2]، وتشيين وغيرهما في جسم المرأة فأصبحت ولادتها سهلة، وخرج الجنين من رحمها سالماً. لقد أذهلت مهارة ليو وان سو عائلة المرأة لدرجة أنهم حسبوه أحد الخالدين!

لكن الحقيقة هي أن ليو وان سو ظل متواضعاً طوال عمره، ولطالما استمع إلى آراء الآخرين بتواضع. وبحسب ما ورد في كتاب «تاريخ جين»، عانى ليو وان سو من مرض التيفوئيد لثمانية أيام، كما عانى من الحازوقة، وشعر بألم في الرأس، كما لم يشعر بأي شهية للطعام، ولكنه لم يعرف كيف يشفي الداء الذي عانى منه. وحين رآه تشانغ يوان سو قدّم له نصيحة ليعالج مرضه، ولكن ليو وان سو رفضها، فسأله تشانغ يوان سو: «لماذا تتكبر علي؟». ثم شخّص له مرضه قائلاً له إنه يعاني من التيفوئيد، وإنه ربما أخطأ في تناول دواء بارد، ونصحه بتناول دواء آخر. أثارت النصيحة إعجاب ليو وان سو فعمل بها فوراً، وكانت النتيجة أنه شفي من مرضه.

إن سبب التقدم المستمر الذي شهده الطب الصيني التقليدي في تاريخه ولا يزال يشهده حتى اليوم هو وجود عدد كبير من الأطباء من أمثال ليو وان سو الذين لخّصوا تجاربهم في كتبهم، واستمروا في ابتداع طرائق علاج جديدة تثري الإرث الطبي الصيني القديم. ولذلك، يظل فن الطب الصيني القديم دائم التجدد، وهو ينتقل من جيل إلى آخر.

---

(1) نقطة يونغ تشياو (yongquan point) في جسم الإنسان - وتعني النبع المتدفق - تقع في أخمص القدمين، وهي نقطة خط الكليتين التي يتم وخزها بالإبر الطبية الصينية لتعديل سريان الطاقة في المجاري المؤدية إلى الكليتين. انظر إلى: http://taoism.about.com/od/Acupressure_Treasures/a/Yong-Quan-KD1.htm [المترجم].

(2) نقطة خقو (hegu) تقع في اليد بين الإبهام والسبابة، أما نقطة تشيين (zhiyin) فتقع في أعلى إصبع القدم الصغرى وترتبط مع المثانة. انظر إلى: http://www.acupuncture-points.org/bladder-point-67.html [المترجم]



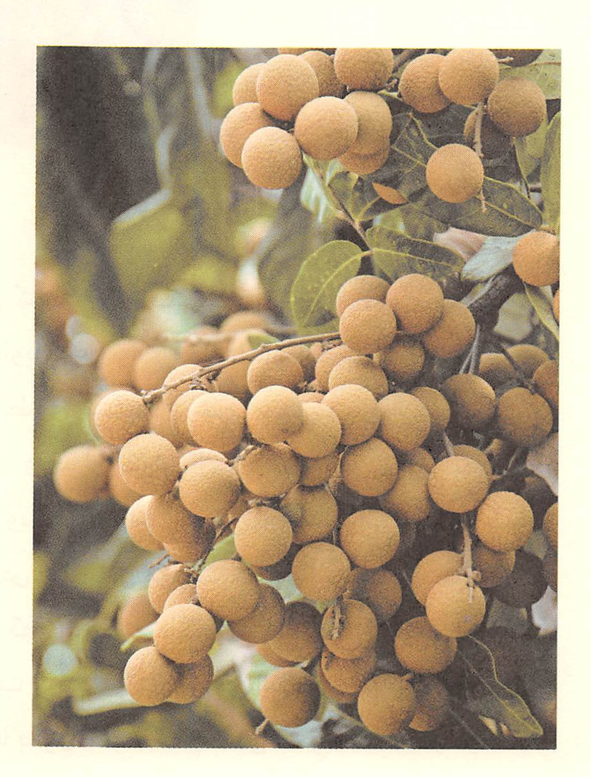
الطب الصيني التقليدي

الفصل السادس

مجموعات للعناية الصحية الصحية

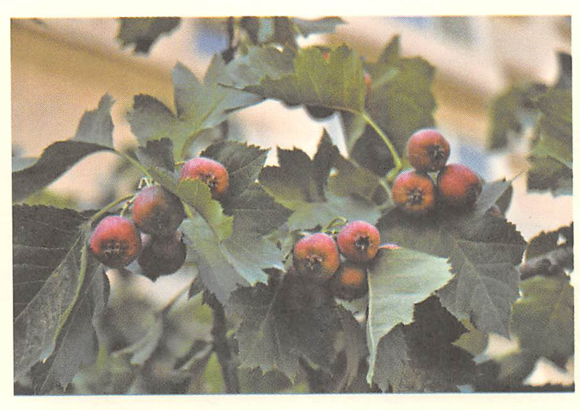
العلاج الغذائي أهم من العلاج الطبي

يقول أحد الأمثال الصينية: «لا يستطيع العلاج الطبي أن يضاهي العلاج الغذائي». فالطب الصيني التقليدي يقوم على فكرة أن الأدوية والأغذية تنبع من المصدر نفسه؛ إذ تلعب الكثير من المنتجات الحيوانية والنباتية دور الغذاء للإنسان، ولكنها هي نفسها تدخل في تركيب الأدوية، من دون وجود حدود واضحة بين الاستخدامين لهذه المصادر. فعلى سبيل المثال، يستخدم كل من حبوب الأرز المستديرة والفاصولياء الحمراء واللونجان والزعرور والبرقوق الغامق والجوز واللوز ورماد التين والفاغرة الصينية وبذور القرع والعسل والكثير غيرها كمواد غذائية لذيذة نتناولها في حياتنا اليومية، ولكنها هي نفسها تدخل في تركيب الكثير من وصفات الطب الصيني التقليدي، وتعمل بفعالية كبيرة ضمنها. (الصور: 6-1 و6-2 و6-3)



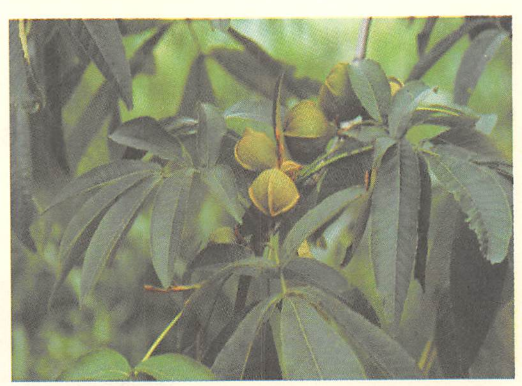
الصورة 6-1 اللونجان (تصوير يانغ شينغ بين)

قال لي شي زن (في عهد سلالة مينغ): «اللونجان غذاء جيد للجسد». فهذه الثمرة ثرية بالمواد المغذية، ويمكن تناولها مباشرة حين تنضج. كما يمكن تعليب اللونجان المجفف، ومعالجة هذه الثمار لتتحول إلى معجون اللونجان.



الصورة 6 -2 الزعرور (تصوير يانغ شينغ)

الزعرور حار، وحلو المذاق، ويساعد على إزالة عسر الهضم، كما يساعد على تنشيط المعدة، وتحريك ركود الدورة الدموية، وإزالة البلغم، وزيادة دوران طاقة التشي.



الصورة 6-3 الجوز، جبل تيانمو، لينآن، مقاطعة تشجيانغ

الجوز حار وحلو المذاق. وهو يساعد على تنشيط المعدة وتقوية الدم وتغذية الرئتين. يمكن تناول الجوز نيئاً أو مجففاً، ويمكن أن نستخرج منه زيتاً يستخدم في صنع المعجنات والحلويات.

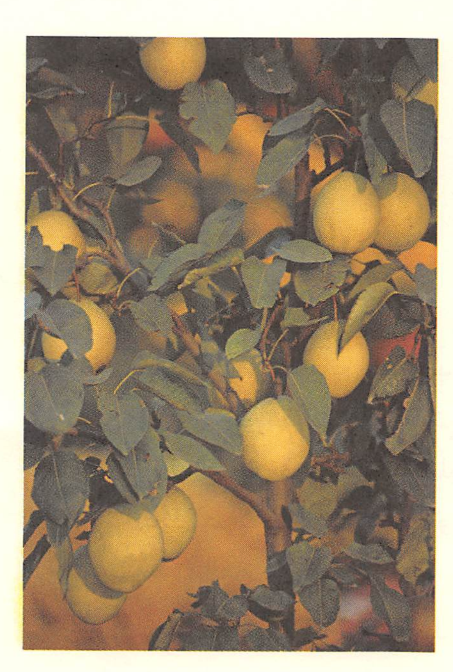
في الفصل الثمانين من كتاب «حلم في القصر الأحمر» ذهب جيا باو يوي إلى معبد، حيث سأل راهباً طاوياً يدعى وانغ عما إذا كان المعبد يبيع وصفة لعلاج غيرة المرأة، فباعه الراهب الطاوي مستخلص غلي مصنوعاً من الإجاص والسكر البلوري وقشور البرتقال والماء. وبعد أن تناولت المرأة مستخلص الغلي لبضعة أيام توقفت عن الشعور بالغيرة! وبالطبع، هذه القصة تروى على سبيل الفكاهة، إلا أنها تخبرنا عن أثر فاكهة الإجاص. فالإجاص من أكثر فاكهة الخريف والشتاء انتشاراً، ويستخدم هذا النوع من الفاكهة في صنع الكثير من الأدوية الصينية التقليدية؛ بسبب تأثيره الفعال في ترطيب الرئتين والتخلص من البلغم. وإذا استخدم الإجاص في مستخلص للغلي فعادة ما يكون حلو الطعم بعض الشيء. وهو بارد وحمضي

قليلاً. وبالإضافة إلى فوائده التي ذكرناها، يمكنه تخفيض حرارة الجسم الداخلية، كما أنه يريح المريض من السعال. أما قشر البرتقال فمر ولاذع الطعم وحار، ومن مزاياه أنه يساعد على تنظيم حركة طاقة التشي في الجسد.

مع أن مكونات الوصفة التي قدمها الراهب الطاوي لا يمكنها أن تخلِّص من الغيرة في الحقيقة، إلا أنها قادرة على تخفيف درجة حرارة الجسم الداخلية. كما أن مجموعة محتوياتها فيها توازن جيد بين الأدوية الحارة وتلك الباردة، وكثيراً ما نرى ذلك التوازن في الوصفات حسنة التركيب في الطب الصيني التقليدي، ويساعد تناولها على تحسين النظام الغذائي الذي يعتني بالصحة على المدى البعيد.

لقد سجلت لنا كتب مثل «سجلات إضافية بالأطباء المشهورين» و«وصفات قيِّمة للحالات الطارئة» و«المواد الطبية للعلاج بالطعام» و«الموجز في المواد الطبية».

يستخدم الإجاص والسكر البلوري المطهيان بالبخار كعلاج غذائي يمكنه أن يحسن طاقة اليين ويرطب الرئتين ويزيل السعال، كما يلعب دوراً في حماية الأوتار الصوتية وترطيبها. وتُصنع هذه الوصفة من خلال غسل الإجاص وتقطيعه، وبعد ذلك يُضاف الماء إلى الإجاص إلى أن يغطيه، ثم يُغلى، وبعدها تضاف قطع السكر وتخفف النار تحت القدر بعض الشيء حتى يذوب السكر، وبعد ذلك تخفف النار إلى أقصى درجة ويترك الإجاص والماء ليغليا على نار خفيفة لعشرين دقيقة **(الصورة 6-4)**.



الصورة 6-4 الإجاص (تصوير قوه جيان شه)

يساعد الإجاص على تغذية الرئتين، والتخلص من البلغم، وإزالة السعال، والراحة من الحمى، وتخفيض درجة الحرارة الداخلية، وإدرار البول، وتسهيل حركة الأمعاء.

أما حساء الإجاص والفجل فيصنع



الصورة 6-5 صورة لرجل يبيع حلوى شراب الإجاص خلال حقبة سلالة تشينغ

بالطريقة التالية: يُقشَّر الإجاص، ثم يُغسل مع الفجل ويقطّعان، وتوضع القطع في قدر فخارية، ويُضاف إليها الماء، ثم توضع على نار قوية حتى تغلي. وبعد ذلك، تضاف إلى القدر قطع السكر البلوري، وتظل على النار حتى يصبح خليط الإجاص والفجل طرياً ويسهل هرسه، ويستخدم لمعالجة أعراض أمراض الحمى الأولية وتقرحات الفم.

يعود العلاج الغذائي إلى زمن بعيد في تاريخ الصين. فبحسب كتاب «الأسئلة المباشرة – الرسالة الكبرى في القواعد الخمس الطبيعية» ينبغي استخدام الحبوب واللحوم والخضروات والفواكه في العلاجات الغذائية، وقد بيّن كتاب «الأسئلة المباشرة – طرائق في علاج تشي الأمعاء» المزيد من الأدوار العلاجية التي قد



الصورة 6-6 المواد الخام المستخدمة في صنع شراب مغلي يستخدم لتخفيض درجات الحرارة وترطيب الرئتين: الزنبق وجذور زهرة الجريسية واللوز وجذر لحية الثعبان وأوراق التوت.

تلعبها الحبوب واللحوم والفواكه والخضروات، كما ذكر لنا كتاب «وصفات قيِّمة» أنه على الأطباء أن يستخدموا العلاج الغذائي في البداية، فإذا فشل في علاج الأمراض فعندها ينبغي استخدام العلاج الطبي الدوائي.

وقد ورد في الكتب اللاحقة مثل «المواد الطبية للعلاج الغذائي» و«المواد الطبية لطبيعة الغذاء» ذكر للعلاجات الغذائية بمنهجية. كما استحدث كتاب «شنغ جي زونغ لو» الذي أُلِّف في حقبة سلالة سونغ موضوع «العلاجات الغذائية»، ووصف علاجات غذائية متنوعة للأمراض المختلفة.

أما كتاب «الأساسيات الصحيحة لطعام الإمبراطور وشرابه» الذي ألفه هو سي هوي في عهد سلالة يوان فيحتوي على الكثير من أوصاف الأغذية التي يتناولها عامة الناس. وهو أول كتاب كامل في تاريخ الصين يخصّص لنظافة الأغذية والعلاجات الغذائية، بالإضافة إلى تدوين الكثير من الوصفات الغذائية القديمة.

في حين أن كتاب «الموجز في المواد الطبية» الذي ألّفه لي شي تشن في عهد سلالة مينغ قد ذكر مئات الحبوب والخضروات والفواكه التي يمكن استخدامها في صناعة الأدوية، أو تناولها مباشرة لغايات طبية علاجية (الصورتان 6-5 و6-6).

تلعب العلاجات الغذائية دوراً مهماً؛ سواء أكان ذلك من حيث العناية بالصحة العامة، أم التداوي من الأمراض. فهي «تشفي الأمراض إذا كانت موجودة،

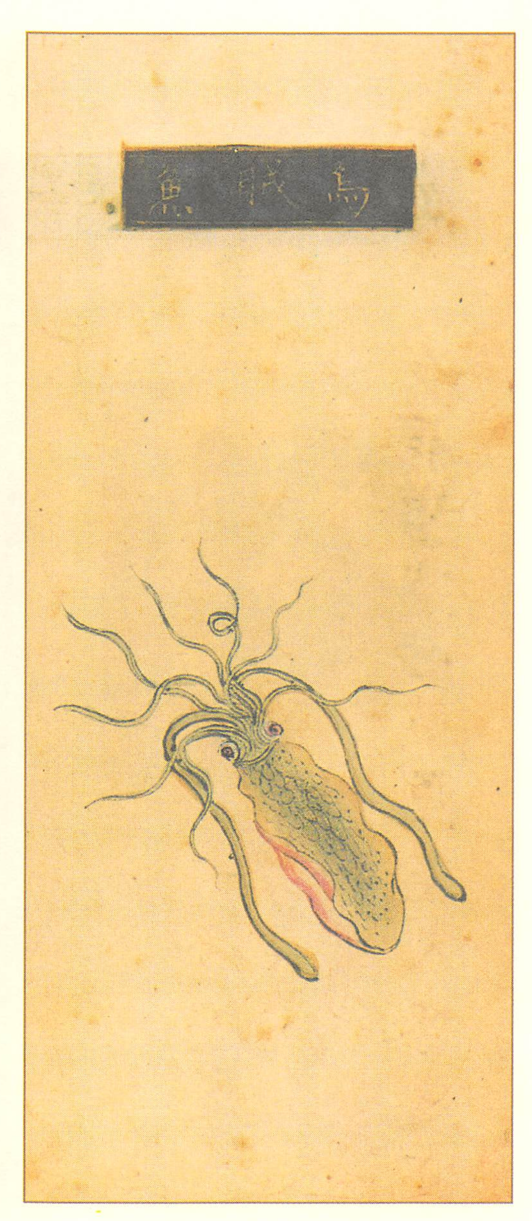
وتبني الجسد إذا لم يعانِ المرء من الأمراض». وقد أشار تشانغ شي تشون - وهو خبير طبي حديث - في كتابه «تكامل الطب الصيني مع الطب الغربي» إلى أن «الأطعمة التي تستسيغها الأذواق قد تؤدي دورين في الوقت ذاته: فهي تشفي أسقام المرضى، كما تملأ بطونهم. وإذا لم تؤدِّ إلى نتائج ملموسة في معالجة الأمراض فعلى الأقل لن تكون لها أية آثار جانبية».

تشترط العلاجات الغذائية أن يكون الطعام متنوعاً ومتوازناً. ويلخص الطب الصيني التقليدي أنواع الطعام المختلفة وصفاتها المتباينة من خلال تصنيفها إلى خمس نكهات رئيسة، ويؤكّد أن تناول الأطعمة يجب ألا يحمل أي ميل إلى إحدى النكهات على حساب الأخرى؛ لأن ذلك سيؤدي على المدى البعيد إلى التأثير في حالة الجسم الفيزيولوجية الطبيعية، وبالتالي سيؤدي إلى الإصابة بالأمراض (الصور 6-7 و6-8 و6-9 و6-10).

يجب علينا اتباع نظام غذائي متوازن ومعقول. فبحسب ما ذكره «كتاب الإمبراطور هوانغ المرجعي في الطب الباطني»، قد يؤدي الإفراط في تناول الطعام إلى تضرر المعدة والأمعاء.

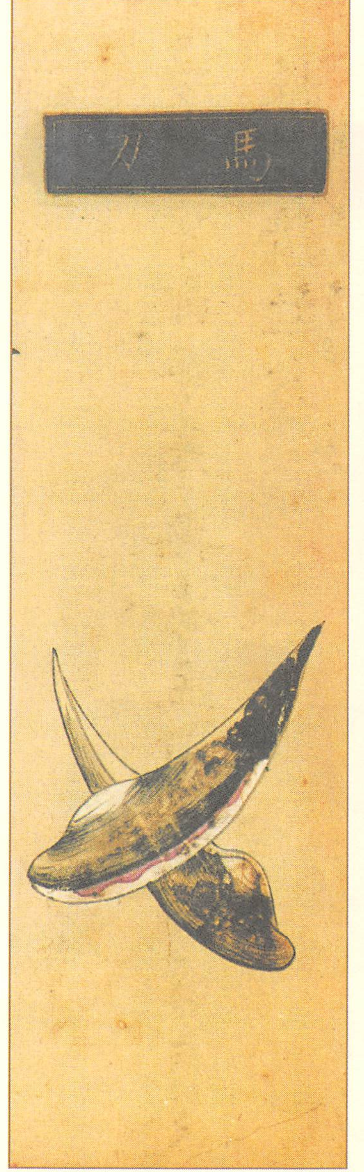
وقد ناقشت كتب طب صينية أخرى الآثار الخطيرة للإفراط في تناول الطعام. فقد ذكر كتاب «طول العمر والحفاظ على الحياة» أن الإفراط في تناول الطعام قد يرضي الشهوات الجامحة، ويسر القلب بالأطعمة الشهية اللذيذة، بل وقد يساعد الرياضيين في الحفاظ على قوام جميل ومنظر مهيب، إلا أنه يؤدي إلى تآكل الأعضاء الداخلية، كما يترك الإنسان في حالة من الخواء الروحي!

إذاً، ما هو الغذاء المتواضع والمتوازن؟ لقد لخّص لنا كتاب «الأساسيات الصحيحة لطعام الإمبراطور وشرابه» ذلك باختصار مفيد: «على الإنسان الذي يتّبع نظاماً غذائياً جيداً أن يأكل قبل أن يشعر بجوع مفرط، وأن يشرب قبل أن يشعر بعطش مفرط، وألا يأكل أو يشرب كثيراً في أي من الوجبات، بل أن يتناول عدداً أكبر من الوجبات التي يحتوي كل منها على مقدار أقل من الطعام». لقد كانت توضيحات القدامى هذه مفيدة جداً لنا، وخاصة بالنسبة إلى الكبار في العمر.



الصورة 6-7 الحبار

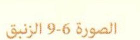
الحبار طعام بحري يتناول طازجاً. وهو غني بالبروتين، وقليل الدسم، ويحتوي على فوائد غذائية وطبية كبيرة.



الصورة 6-8 المحار

ورد في كتاب شن نونغ المرجعي في الأعشاب أن المحار يشفي التقرحات الجلدية، وينقي الجسم من البلغم، ويدر البول، كما يشفي من السيلان والنزيف والدوران وطنين الأذن.





الصورة 6-9 الزنبق

نبتة الزنبق باردة بعض الشيء، وتساعد على إزالة الحرارة من الجسم وترطيب الرئتين وإراحة الأعصاب، وتستخدم زهرة هذه النبتة وساقها في صنع الأدوية.



الصورة 6 - 10 أذن الخشب

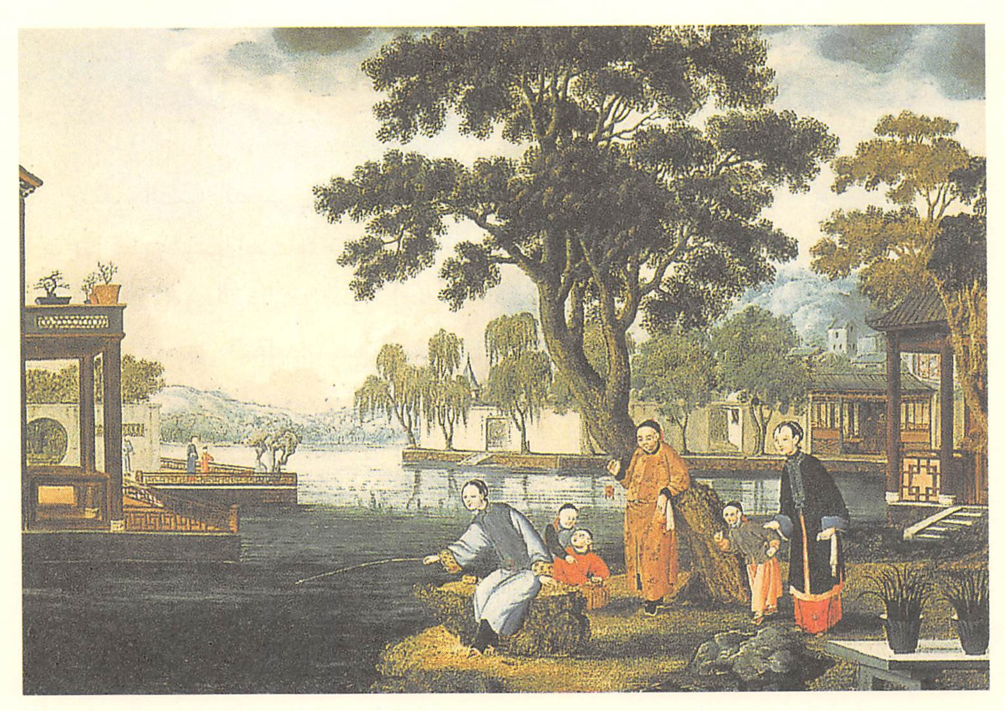
أذن الخشب عبارة عن فطر ينمو على بعض الأشجار. وهو ثري بالحديد، وتناوله بانتظام يساعد على تقوية الدم، وتجميل الجلد وتنعيمه، وشفاء نقص الحديد المؤدي إلى فقر الدم.

| التمارين الإستاتيكية (الساكنة) والديناميكية (الحركية) تساعد في الحفاظ على الصحة

يولي الطب الصيني التقليدي مسألة الحفاظ على الصحة كوسيلة لتجنب الأمراض قبل وقوعها اهتماماً خاصاً. كما أنه يمتلك تاريخاً طويلاً غنياً في محتواه في هذا الصدد، وهو بالفعل من كنوز الحضارة الصينية. إن الهدف من العناية بالصحة في الطب الصيني التقليدي هو تنشيط الجسم وأعضائه، والوقاية من الأمراض، والتمتع بحياة طويلة وصحة سليمة. وبوجود هذا المحتوى الغني والأساليب المتنوعة، تعكس الأساليب الصينية التقليدية حقيقة الحفاظ على الصحة، كما تعبّر عنها التمارين الإستاتيكية والديناميكية التي تؤدى لتحقيق هذه الغاية.

يدعو الطب الصيني التقليدي إلى تكيّف الإنسان مع فصول السنة الأربعة. وقد ورد في كتاب «الأسئلة المباشرة - رسالة في مناغمة الروح بحسب مناخ الفصول الأربعة» أن العناية بالصحة يجب أن تتأسس على تفاعل الطبيعة مع فصول السنة الأربعة: فالتبرعم والازدهار يكونان في الربيع، والنمو وطرح الثمار في الصيف، والحصاد في الخريف، والحفظ والاختباء في الشتاء. وهذا يعني أنه يجب على الناس أن يحافظوا على تناغمهم مع الطبيعة، ومحاكاة المناخ في مختلف فصول السنة هي المبدأ الذي تقوم عليه رعاية الصحة في الطب الصيني التقليدي. وقد أشار كتاب «حوليات الربيع والخريف للو» إلا أن جوهر العناية بالصحة هو تجنب الآثار الضارة للأحوال الجوية غير الاعتيادية، حيث يتجنب الإنسان البرد الشديد والحر الشديد على حدٍّ سواء (الصورة 6-11).

وكذلك يدعو الطب الصيني التقليدي إلى سيطرة الإنسان على مشاعره وتحكمه بها. وتشمل هذه المشاعر: السعادة، والغضب، والقلق، والتوتر، والحزن، والخوف، والفزع. ويعود كل منها بحسب نظرية الطب الصيني التقليدي إلى أحد الأعضاء الداخلية الخمسة. فبحسب ما ذُكِر في كتاب «الأسئلة المباشرة - رسالة مستقلة عن الين واليانغ»، أعضاء الإنسان الداخلية الخمسة هي المسؤولة عن توليد الشعور بالسعادة والغضب والحزن والقلق والخوف، وهذه المشاعر تؤثر بدورها على الأعضاء الخمسة.



الصورة 6-11 رسم يرجع إلى القرن الثامن عشر ويُظهر نزهة عائلية صيفية تشمل صيد السمك. إن التقرب من الطبيعة يمنح الإنسان لذة جسدية ونفسية

المشاعر السبعة في حد ذاتها لا تسبب المرض، ولكن التقلبات المفاجئة في حالة الإنسان العاطفية بين قمة السعادة وشدة الغضب وذروة الخوف مثلاً تؤدي إلى الإصابة بالمرض بالفعل. وكذلك إذا ظل الإنسان بحالة عاطفية واحدة لفترة طويلة من الزمن فإن هذا سيؤدي إلى الإصابة بالأمراض أيضاً. وتشمل الاضطرابات الخارجية التي قد تجعل الإنسان يعاني من هذه التقلبات العاطفية: أحوال المعيشة أو العمل التي قد لا يرتضيها، ووقوع كوارث طبيعية أو إنسانية في حياته، وتقلبات الأحوال الاقتصادية، وانفصاله عن عائلته أو عمن يحب. وفي مثل هذه الأحوال، قد تتسبب المشاعر السبعة مباشرة بإصابة الأعضاء المرتبطة بها بالمرض.

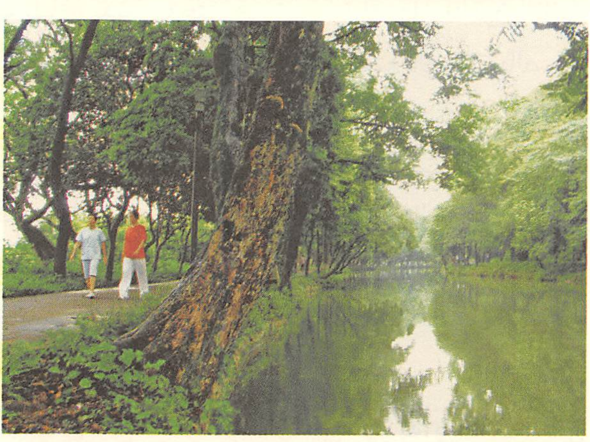
توجد الكثير من الطرائق التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يسيطر على عواطفه ويناغم تدفقها فيه. فبحسب ما ذُكِر في كتاب «أسئلة مباشرة – رسالة في المعاوقة»، باستطاعة الهدوء أن يريح الذهن، كما أن المشي والجري وغيرهما من

التمارين الرياضية تساعد على تدفق الدم وتحسين حالة الإنسان النفسية. وقد يفضّل البعض الاستماع إلى الموسيقى، أو قراءة الشعر، أو زراعة الزهور، أو صيد السمك، أو الرسم لتفريغ العقل من العواطف السلبية وإعادته إلى حالة الصفاء والسكينة. قال تاو هونغ جينغ - وهو طبيب عاش في عهد السلالة الجنوبية - في كتابه «سجلات الحفاظ على الصحة وطول العمر»: «من أجل الحفاظ على صحة الإنسان وطول عمره، ينبغي عليه ألا يمر بتقلبات عاطفية شديدة» (الصورتان 6-12 و6-13).

تشدد الأساليب الصينية التقليدية في الحفاظ على الصحة على ممارسة التمارين الرياضية بانتظام، وتنظر إلى الإنسان على أنه وحدة عضوية متكاملة. فمن يمارس الرياضة بانتظام قد يجد أثر ذلك على عواطفه؛ إذ يصبح متفجراً



الصورة 6-12 رجل عجوز يستمتع بصيد السمك على رصيف تشن شوي بجانب نهر هاي هي في تيان جين (تصوير لي شينغ لي)



الصورة 6-13 التنزه مشياً على الأقدام في حديقة قناة لينغ العامة في مقاطعة شينغ آن، مدينة قوه لِن، محافظة قوانشي (تصوير هوانغ يان هونغ)


الصورة 6-14 شباب وشابات يمارسون هواية الرسم في قرية هونغ، مقاطعة يي شيان، محافظة آن هوي (تصوير جينغ آي بينغ)


الصورة 6-15 فتاة تعزف على آلة قو تشنغ الصينية التقليدية في مقهى لتناول الشاي، شارع جينلي العريق، مدينة تشنغدو، محافظة سيتشوان (تصوير لي مينغ)

بالطاقة، بالإضافة إلى تمتّعه بلياقة بدنية. وحتى في زمن سلالة هان (القرن الثالث قبل الميلاد) أكّد هوا توه على أهمية التمارين الرياضية ليتمتع الإنسان بالصحة، فطوّر ما سُمّي «بتمرين الحيوانات الخمسة»، والحيوانات الخمسة هي: النمر والغزال والدب والقرد والعصفور. فإذا أحس الإنسان أن صحته ليست على ما يرام، يمكنه عندئذ أن يمارس أحد هذه التمارين حتى يتعرق ويشعر بالجوع. وقد ذكر سون سي مياو في كتابه «وصفات قيّمة للحالات الطارئة» أن «الطريقة الفضلى لضمان التمتع بصحة سليمة هي القيام بالتمارين الرياضية المناسبة، ولكن من دون أن يرهق الإنسان نفسه» (الصورتان 6-14 و6-15).

يشدّد الطب الصيني التقليدي على سيطرة الإنسان على شهواته، ويطالب الناس

بالحفاظ على مشاعر نبيلة وفكر صافٍ وروح نقية. وكما قال الحكيم منشيوس[1]: «لا يمكن الوصول إلى سلام العقل الداخلي إلا بكبح الرغبات والشهوات». وفي عهد الممالك الثلاث، ذكر جي كاي في «مقالة في الحفاظ على الصحة» «أن تمتّع الإنسان بفكر صافٍ وهادئ ضروري حتى يتخلص من شهواته» (الصورة 6-16).

يحتوي التراث الفلسفي والطبي الصيني على الكثير من الأفكار المرتبطة بالحفاظ على صحة الإنسان. ويشمل ذلك الاعتدال في ممارسة الجنس وتناول الطعام والشراب. ومختصر هذه الأفكار هو التناغم مع الطبيعة كأساس للحفاظ على الصحة، وتحقيق ذلك من خلال الفضائل الخلقية وممارسة الرياضة والصحة العقلية، وتعتبر هذه الأسس الفلسفية من أعظم ما حققه الطب الصيني التقليدي.

(1) الحكيم منشيوس فيلسوف صيني ينتمي إلى مدرسة كونفوشيوس. وقد عاش في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، ويعتبر أهم فيلسوف في المدرسة الكونفوشيوسية بعد كونفوشيوس نفسه (المترجم).



الصورة 6-16 تمثالان من بين تماثيل «الحكماء السبعة في غابة الخيزران»، وادي وانغيو، غابة الخيزران في شونان، محافظة يبين، محافظة سيتشوان (تصوير هوانغ جين غوو)

الشخص الذي يعزف الغو تشين هو جي كاي، وقد كان من رجال الفكر والأدب والموسيقى في أواخر عهد سلالة وي في حقبة الممالك الثلاث. وهو أحد الحكماء السبعة في غابة الخيزران؛ إذ كانت له إنجازات كبيرة لا تنسى في مجالات الأدب والموسيقى والفلسفة، كما كان مولعاً بدراسة أساليب الحفاظ على الصحة ورعايتها.



تمرين الحيوانات الخمسة والرياضة للعناية بالصحة

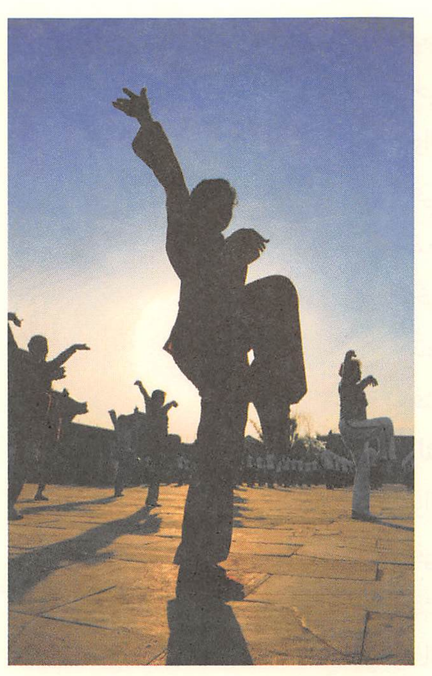
بحسب ما ذُكِر في كتاب «حوليات الربيع والخريف للو - جين شو»: «المياه الجارية لا تأسن، والباب المتحرك لا يتعفن»، وما يعنيه هذا هو أن ما يتحرك أقل قابلية للتآكل، ولذلك فالطب الصيني التقليدي يشدد على أهمية القيام بتمارين رياضية بشكل منتظم للحفاظ على الصحة. ويدعو الطب الصيني التقليدي إلى ممارسة تمارين تحرك الجسد بأكمله، وتُستخدم فيها العضلات والعظام أفضل استخدام، وكذلك القنوات الداخلية في الجسم وفروعها؛ حيث تتفتح هذه القنوات، وتصل الأعضاء إلى حالة من التناغم تتيح المجال ليكون جسم الإنسان متناغماً مع عقله، وتزيد نشاطهما وتحافظ على صحتهما.

إن التمرين الذي يمثّل العناية بالصحة عبر ممارسة الرياضة خير تمثيل هو تمرين الحيوانات الخمسة. وفي كتاب «تاريخ الممالك الثلاث - تاريخ مملكة وي - سيرة حياة هوا توه» ورد ما يلي: «لدي طريقة سميتها تمرين الحيوانات الخمسة، وهذه الحيوانات هي النمر والغزال والدب والقرد والعصفور. وتساعد هذه الطريقة على شفاء الأمراض وجعل الجسم في حالة صحية سليمة».

إذاً، كان الهدف الأساسي من اختراع تمرين الحيوانات الخمسة هو شفاء الأمراض من خلال النشاط الجسدي. وأهم ما يتطلبه هذا التمرين هو الحركة الخارجية والسكون الداخلي، أي السعي إلى السكون في عين الحركة، والجمع بين الليونة والصلابة. أما التمرين نفسه فيتضمن أشكالاً مختلفة، لكل منها متطلباته الخاصة. فشكل النمر يتطلب إظهار قوة النمر الخارقة وليونته التي لا مثال لها، فتظهر على الممارس لهذا الشكل الليونة في عين الصلابة والصلابة في عين الليونة. أما شكل الغزال فيتطلب إظهار هدوء الغزال، في حين أن شكل الدب يجب أن يعكس شراسة الدب وقوته. أما شكل القرد فيجب أن يُظهِر مرونة القرد ومهارته، بينما يعكس شكل العصفور قدرة العصفور على بسط جناحيه؛ جامعاً في ذلك الصورة والروح. يمكن لممارسة تمرين الحيوانات الخمس بشكل منتظم ومتكرر أن تنشط المفاصل، وتقوي الخصر والكليتين، وتعيد الصحة إلى الكبد والطحال، وتعزّز صحة القلب والرئتين (الصورتان 6-17 و6-18).



الصورة 6-17 تمثال في حديقة الحيوانات الخمس في مدينة شو تشانغ، محافظة خنان يعرض كيفية ممارسة تمرين الحيوانات الخمس.



الصورة 6-18 مواطنون يمارسون تمرين الحيوانات الخمس الذي اخترعه هوا توه، ساحة هوا شي لو، بوتسو، محافظة آنهوي (تصوير تسانغ يان لين)

لممارسة تشيقونغ[1] تاريخ طويل أيضاً؛ مع أننا لا نرى الأحرف التي تدل على هذه الكلمة في الكثير من السجلات التاريخية. ولكنّ هذه الممارسة كان يشار إليها بأسماء أخرى مثل تو نا (فن التنفس) وداو ين وغيرها. ومن خلال التمارين الذاتية للروح، تنسّق تمارين التشيقونغ دوران طاقة التشي الحيوية، وكثيراً ما تترجم الكلمة المشيرة إليها «بطريقة تمارين التنفس العميق»، مع أن هذه الترجمة لا تعبر عن المعنى الحقيقي للتشيقونغ.

في الحقيقة، تشمل تمارين التشيقونغ عملية التنفس وأوضاع الجسم والتحكم بالأفكار والخواطر التي تدور في الذهن. وأثناء تأدية هذه التمارين التي تؤثر في تفكير الإنسان وجسمه وتنفسه، يجب أن يكون مسترخياً بشكل طبيعي، وأن

(1) تشيقونغ تعني حرفياً: تنمية الطاقة الحيوية، وهي عبارة عن نظام متكامل من الأوضاع والحركات الجسدية وطرائق التنفس بهدف تحسين صحة الجسد، أو التأمل الروحي، أو حتى تعلم الفنون القتالية. (المترجم)

يجعل عواطفه تتحرك مع طاقة التشي؛ حيث يجمع بين تنمية العواطف الإيجابية والتمرين، وحيث يشعر الإنسان بالسكينة في داخله بينما هو يتحرك. يجب على ممارس هذه التمارين أن يرتقي خطوة خطوة، وأن يتدرب عليها لفترة طويلة؛ إذ تُصنَّف تمارين التشيقونغ تحت خمس فئات بحسب المدرسة الفكرية والروحية التي تتبعها: الكونفوشيوسية، والطبية، والطاوية، والبوذية، وتلك التي تستخدم في الفنون القتالية. وتتطلب كل فئة من فئات التشيقونغ من ممارسها شيئاً مختلفاً؛ فالتشيقونغ في الكونفوشيوسية تهدف إلى تربية النفس وتهذيبها، أما في الطاوية فتركز على الصحة العقلية والجسدية، في حين أنها في البوذية تركز على تصفية القلب وصولاً إلى التحرر الروحي، بينما تهدف في الفنون القتالية إلى تمرين الجسم وزيادة المهارات القتالية، أما بالنسبة إلى الأطباء فالهدف من التشيقونغ هو شفاء الأمراض وتحسين الصحة الجسدية (الصور 6-19 و6-20 و6-21).



الصورة 6-19 صورة لداو ين، مخطوطة حريرية في مقابر ماوانغدوي من أسرة هان.

لقد تم الكشف عن هذه الخريطة في مقابر ماوانغدوي من أسرة هان في مدينة تشانغشا في محافظة هونان سنة *1974*. وهي أقدم مخطوطة مكتشفة حتى الآن حول العناية بالصحة من خلال ممارسة الرياضة، وتعود إلى عهد سلالة هان الشرقية. تُظهر الصورة وضعية جسدية تهدف إلى شفاء الضعف.

بادوانجين (القماشة الحريرية الموشاة ذات المقاطع الثمانية) - كما يظهر من الاسم - تمرين يتألف من ثمانية أفعال. القماشة الحريرية الموشاة ناعمة وجميلة، والهدف من إطلاق اسمها على تمارين بادوانجين هو التأكيد على طبيعة هذه التمارين الناعمة. كانت المرة الأولى التي ظهر فيها اسم هذه التمارين في عهد سلالة سونغ الشمالية. وفي ذلك الوقت تألف التمرين من ثمانية أفعال: رفع اليدين، والوقوف فيما الساقان مقوستان ومتباعدتان وكأن الممارس يمتطي حصاناً، وتحريك الرأس يميناً ويساراً، ثم هز الرأس والردفين، ثم تقويس الظهر إلى الأمام حتى تصل اليدان إلى القدمين، ثم العودة إلى وضعية امتطاء الحصان، وبعد


الصورة 6-20 يمارس هؤلاء الرجال التشيقونغ في الصباح، مدينة لويانغ، محافظة خنان (تصوير شياو ليوي)


الصورة 6-21 مجموعة تمارس التشيقونغ في حديقة عامة (تصوير ليو فنغ)

ذلك مدّ القبضتين إلى الأمام، ثم الوقوف على أصابع القدمين. كان هذا التمرين من فروع الداو ين المهمة في الأزمنة القديمة، ثم طورته مدارس مختلفة خلال عهد سلالة سونغ. وبعد ذلك، في حقبة سلالَتي مينغ وتشينغ وصل التمرين إلى كامل تطوره. ونتيجة لشمولية هذا التمرين، وسهولة حفظه، وفعاليته الواضحة في تحسين الصحة نال رواجاً واسعاً، وخاصة لأنه مناسب للغاية للكبار في السن.

يشير مصطلح تايجيتشيوان أيضاً إلى تمارين لياقة بدنية متعددة طوّرها الطب الصيني التقليدي، وتستفيد هذه التمارين من مزايا الملاكمة في حقبة سلالة مينغ، وخاصة التشانغتشيوان ذي الاثنتين والثلاثين خطوة الذي طوره تشي جي غوانغ، كما تجمع بين الداو ين والتو نا القديمين، وتستخدم النظريات الطبية الصينية القديمة مثل طاقتي الين واليانغ وقنوات الجسم وفروعها.

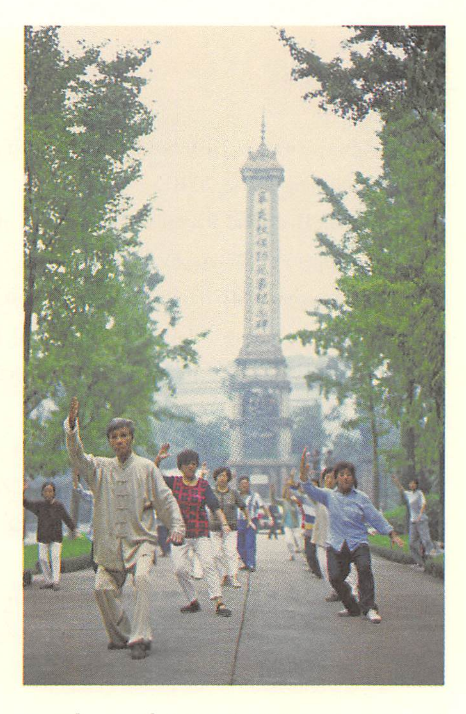
بالنسبة إلى أصول تايجيتشيوان، بعض النسخ مثل شيوي شيوان بينغ تعود إلى زمن سلالة تانغ، ويقال إن تشانغ سا فنغ الذي ذكرت الأسطورة أنه عاش 212



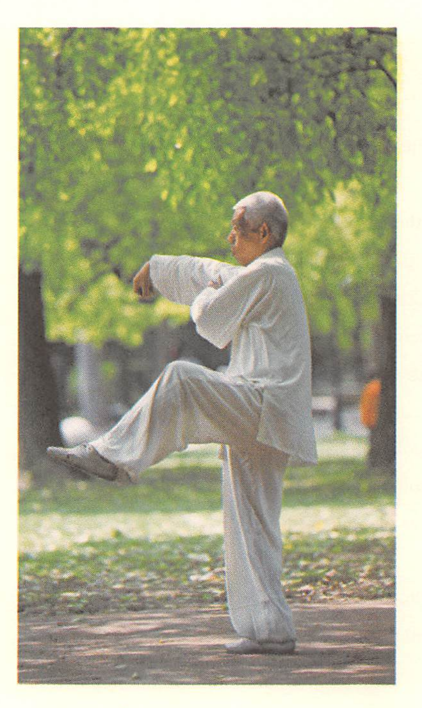
الصورة 6-22 أطلس تايجيتشيوان، قرية تشنجياقو، مقاطعة ونشيان، مدينة جياوتشو، محافظة خنان (تصوير بي تشن شي)

سنة خلال حقبة سلالتي سونغ ومينغ قد طوّر بعض تمارينها، ويقال أيضاً إن تشن وانغ تينغ ووانغ تسونغ يويه اللذين عاشا في حقبة سلالة تشينغ قد طوّرا بعضها الآخر. وفي الحقيقة، شهدت تمارين تايجيتشيوان عملية تطور وتحديث وتعديل استمرت عبر عصور طويلة، لذا لا يمكننا نسبتها إلى فرد واحد (الصورة 6-22).

تعتبر الراحة والنعومة والانسيابية والترتيب السمات الرئيسة للتايجيتشيوان. فهي تجمع بين الصلابة والليونة، وقد وصفت حركاتها بأنها مثل السحب المارة في السماء أو الماء المتدفق، وتشتمل على موسيقى إيقاعية وأفكار فلسفية وأشكال جميلة وجو عام شاعري. تؤكد هذه التمارين على الانتصار على الصلابة بالليونة، والقيام بالفعل الحركي وسط السكون، وهكذا دواليك. وتساعد هذه التمارين الناس على الوقاية من الأمراض والحفاظ على ذهن صافٍ، فضلاً عن الشعور بالمتعة الذي تمنحه لممارسها.



الصورة 6-23 ممارسون لرياضة تايجيتشيوان أمام نصب أزمة سكة الحديد، مدينة تشينغ دو، محافظة سيتشوان (تصوير وانغ شي وي)



الصورة 6-24 رجل عجوز يرتدي ثياباً بيضاء ويمارس التايجيتشيوان في حديقة عامة في شانغهاي (تصوير ليو وي شيونغ)

للتايجيتشيوان مدارس كثيرة؛ منها أسلوب تشن، وأسلوب يانغ، وأسلوب سَن، وأسلوب وو، وأسلوب وو دانغ. ولكن الاختلافات بين هذه الأساليب وتعقيدها دفعت الحكومة الصينية سنة 1956 إلى اختيار 24 أسلوباً على أساس أسلوب يانغ «كتايجيتشيوان» مبسط؛ وذلك بهدف تسهيل شيوعه بين الناس. وقد نالت هذه الأساليب المبسطة بالفعل شعبية كبيرة في الصين وخارجها.

منذ زمن ابتكار تمرين الحيوانات الخمس، ظل الطب الصيني التقليدي يستكشف الطب الوقائي، وخاصة في جوانب الحفاظ على الصحة من خلال ممارسة الرياضة. ولا يزال حتى اليوم مستمراً في إيجاد أساليب رياضية وفنون قتالية يعشقها الناس وفي تسهيل ممارستها، وقد أصبحت هذه الأساليب حلولاً رائعة بهدف الوقاية من الأمراض، كما أنها إسهام آخر قدمه الطب الصيني التقليدي إلى العالم.

المراجع:

[1] Li Jingwei. General History of Chinese Medicine (Ancient Volume) [M]. Beijing: People's Medical Publishing House, 2001.

[2] Sima Qian. Historical Records—An Account of the Five Emperors—An Account of the Three Legendary Emperors—Biography of Bianque [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1982.

[3] Liu An. Huainanzi [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1986.

[4] Lü Buwei. Lü's Spring and Autumn Annals [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1986.

[5] Zhang Canjia. Notes to Jiayi Jing of Acupuncture [M]. Beijing: People's Medical Publishing House, 1996.

[6] Ban Gu. Annals of Han [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 2000.

[7] Liu Xiang. Shuo Yuan—Bian Wu [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1987.

[8] Fan Ye. History of Later Han Dynasty—Biographies of Alchemists [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 2010.

[9] Long Bojian. Explanations on Plain Questions in Classic of Internal Medicine by Emperor Huang, Explanations on Miraculous Pivot in Classic of Internal Medicine by Emperor Huang [M]. Tianjin: Tianjin Science and Technology Press, 2004.

[10] Zhang Zhongjing. Treatise on Exogenous Febrile Diseases [M]. Beijing: Academy Press, 2009.

[11] Zhang Zhongjing. Synopsis of Golden Chamber [M]. Beijing: Academy Press, 2008.

[12] Liu Duzhou. Guide to Clinical Symptoms in Treatise on Exogenous Febrile Diseases [M]. Beijing: Academy Press, 1993.

[13] Zhang Ruixian. Walk into the Door of Compendium of Materia Medica [M]. Beijing: Huaxia Publishing House, 2006.

[14] Sun Simiao. Valuable Prescriptions for Emergency, Supplement to Valuable Prescriptions for Emergency [M]. Beijing: People's Medical Publishing House, 1982.

[15] Xu Shen. Words and Expressions [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 2009.

[16] Huisihui. The Proper Essentials for the Emperor's Drink and Food [M]. Beijing: China Press of Traditional Chinese Medicine, 2009.

[17] Liu Xu. Old Book of Tang History—Biography of Sun Simiao [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1975.

[18] Danbo Yuanyin. Textual Study on Chinese Medical Books [M]. Beijing: Academy Press, 2007.

[19] Tuotuo. History of Jin Dynasty—Biography of Liu Wansu [M]. Beijing: Zhonghua Book Company, 1975.

[20] Cao Xueqin. Dream of the Red Mansion [M]. Changchun: Changchun Publishing House, 2006.